17 ème Année No. 855

Lundi — 21 — 11 — 1949

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ٨٥٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٣٠ من شهر المحرم سنة ١٣٦٩ — ٢١ نوفمبر سنة ١٩٤٩ السنة السابعة عشرة »

محمد على الكبير

بمناسبة الذكرى المئوية لوفاته

كلما قلبت تاريخ هـذا الرجل العظيم ثم أرسلت فكرى وراء أخباره وآثاره ، بدا لى الرجـل عالما من المزايا التى لا تختص بها الط[illegible] غير الأفذاذ من الرجال ؛ ذلك لأن محمد على لم يكن فرداً عادياً من هؤلاء الذين تخلقهم الظـروف والمناسبات ، وتحل الحظوظ الطارئة فى حياتهم محل المواهب النادرة والطموح الذى لا يحد ... كلا ، لم يكن محمد على واحداً من هؤلاء ، ولـكنه كان واحداً من أولئك الذين يفرضون أنفسهم على الظروف والمناسبات ثم لا يقيمون للحظوظ وزناً ما دام الوزن فى حياتهم للبصيرة النافذة وللعزم القادر وللذكاء الوثاب لهذا كله سـواء أسعف الحظ أم تخلف ، أقبلت الدنيا أم أدبرت ، ابتسمت الأيام أم لقيت جهادهم بالعبوس ! وهكذا تجد العظيم كلما بحثت عن أسباب العظمة فى كل ميدان تقام فيـه صروح الهمم وتشيد معاقل الـكفاح ؛ شعلة من الإيمان بالنفس وشعلة من الإيمان بالوطن ... ومن وهج الشعلة الأولى تكونت شخصية محمد على وغمر ضوؤها كل نفس ، ومن وهج الشعلة الثانية تكونت شخصية مصر الحديثـة وامتد سلطانها إلى كل أرض ، وعلى مدار الشخصيتين العظيمتين اقترنت حياة رجل فى حساب التاريخ بحياة أمة !

حين وفد محمد على إلى مصر كانت مصر مرتعاً خصيباً للفوضى التى لا يرجى معها نظام ، وكانت ملجأ رحيباً للغاصب الذى لا ينتظر من جوره إصلاح ، وكانت حلماً جميلا للطامع الذى لا يؤمن لجشعه مغبة ، وكانت نهباً مباحاً للجهل الجاثم على العقول وللتأخر المتخلف عن ركب الحضارة ... ونظر الرجل العظيم إلى الماضى البعيد بفكره فاستعبر ، وإلى الحاضر المشهود بعينه فأنكر ، ثم تطلع بطموحه إلى المستقبل المرتقب فامتلأت نفسه بالأمل والثقة والرجاء ! ماذا ينقص الأمم من وسائل الرقى لتأخذ مكانها فى الطليعة ؟ وماذا يعوز الشعوب من أسباب التقدم لتشق طريقها إلى الأمام ؟. رسم القائد العظيم خطته قبل أن يخوض أعظم معركة فى ساحات المجد ؛ رسمها فى صبر لا ينفد وأناة لا تيأس وجلد لا يلين . وكانت أعظم معركة وأشرف معركة .. مصـدر العظمة فيها أنها انتزعت أمة من مهاوى العدم ، ومنبع الشرف فيها أنها انتشلت شعباً من ظلمات الجهل ، وانتصر الرجل فى المعركة الخالدة بسلاحين : سلاح العلم والمعرفة هنا وسلاح الجيش والأسطول هناك . وفى كل خطوة من خطواته فتوح تترى وغزوات !

لست فى مجال الإحصاء للمفاخر والمآثر فتلك أمور يسأل عنها كتاب التراجم وكتاب التاريخ ، ولـكننى فى مجال التحية القلمية للعاهل العظيم بمناسبة انقضاء مائة عام على وفاته ، وإنها لذكرى تستحق البقاء فى كل نفس من نفوس هـذا الشعب الذى كافح محمد على من أجل بقائه ، وكافح من بعده أبناؤه وأحفاده من أجل

خيره وسمعته وسيادته ... اليوم ، وبعد تلك الأعوام المائة ننظر إلى البناء الذى أقناه بجهادنا على أرض القومية المصرية ، فلا نملك إلا أن نذكر واضع الأساس الأول فى هذا البناء ، وغداً حين نواصل السير فى الطريق الذى نتشوف إلى بلوغ منتهاه ، سنرتد بأفكارنا إلى الوراء نلتمس الهدى من تاريخ رجل هو قدوة السائرين فى كل طريق .

لقد كان محمد على مصريا بالطبع والسليقة وإن لم يكن مصريا بالمولد والنشأة . وأعظم بهذا المصرى الذى شغلته مصر عن وطنه الأول وعن كل ما عداه من أوطان ، وأعظم بهذه المصرية التى لقى صاحبها العظيم فى سبيلها من المحن مالم يلقه إنسان !.

(أ . م)

صور من الحياة :

ركن يتداعى

للأستاذ كامل محمود حبيب

لست أنسى — ياصاحبى — أنك كنت لى فى ميعة الصبا رفيق الروح فى وحدة الحياة ، وأنيس القلب فى وحشة العمر ، ونور النفس فى ظلام العيش !

لقد كنت إذ ذاك فتى مدنىّ النشأة والزى ، تختال فى الصحة وترفل فى العافية ، وتتألق على وجهك سمات النعمة وتبدو على جبينك علامات السعة ؛ لا تعوزك المتعة الرخيصة ولا تفتقر إلى اللذة التافهة . وأبوك صائغ ماهر يصوغ من الذهب الدور والأطيان . والصائغ ساحر ينفث فى العقد ليخلق لنفسه الثراء والغنى ؛ غير أنه مبتلى بالشح ، مرزأ بالكزازة ، يعروه الجزع من الإنفاق ، وتمه الخوف من البذل : طبيعة ركبت فيه لأنه يرى الكنز بين يديه وهو يتلألأ بريقاً يخطف البصر والقلب ، فيشفق أن تبدده لوثة الكرم أو أن يتلمه داء السخاء . وهكذا كان أبوك — يا صاحبى — صائغاً يصوغ الثروة ويضن بها على نفسه وعلى أولاده ، فما تبضّ يده بالقرش ولا ينبض قلبه بالشفقة . فأصابك بعض قسوته وبخله . وأحسست أنت بغلظة أبيك دون شحه ، لأن أمك كانت إلى جانبك ، فاعتراك تكسر وفتور من طول ما دعّك عن نفسه وعن مجلسه فنفرت من دارك وأهلك .

أما أنا فكنت فتى ريفى الطبع قروى المزاج ، أسترسل فى سذاجة وآخذ فى قوة وأدفع فى عنف ، وأنا إذ ذاك قريب عهد بالمدينة ، لم تمسنى رخاوة المدنية ولا شملتنى طراوة الحضارة . أعيش وحيداً فى حجرة وضيمة ، أحس الشظف والضياع ، لا أجد الرفيق ولا ألمس الراحة ، أتقلّب بين عناء الدرس وعنت الحياة فلا أتملل ولا أضيق ، وأتنسم ريح القرية — بين الحين والحين — علّى أجد فيها بلاغاً ، وأنتظر هبّات عطف أبى — بين الفينة والفينة — عسى أن أنشق فيها عطر الشفقة . فتعلمت فى وحدتى أول مبادئ الصبر والأنفة ، وتلقنت من فاقتى أول تعاليم الترفع والكبرياء .

واطمأن قلب إلى قلب ، وسكنت نفس إلى نفس ، فانطلقنا معاً — جنباً إلى جنب — نجتاز مراحل الدراسة فى غير وناء ولا بطء ، صديقين عاشا فى صفاء لم يُعكره خصام ولا شابه تدابر ، وانطوت الأيام .

* * *

وتخرجت — يا صاحبى — فى مدرستك لتصير موظفاً فى وزارة الأشغال ، وانفلت من شح أبيك وقسوته لتنشق — لأول مرة — عبير الحرية والخلاص ، ثم اخترت لحياتك فأصبحت — بعد سنوات — زوجاً وأباً وربَّ أسرة . أما أنا فقد طوحت بى الحياة فى مطارحها ، لا أستقر فى مكان إلا لأفزع عنه ، ولا أهدأ فى بلد إلا لأطير عنه . فصرفتنى شواغل العيش عن أن أراك وأنا لا أنسى أنك كنت لى فى ميعة الصبا رفيق الروح فى وحدة الحياة ، وأنيس القلب فى وحشة العمر ، ونور النفس فى ظلام العيش .

ثم هفت نفس إليك — بعد عمر من عمرى — فانطلقت ، فرأيتك رجلاً تتوثب قوة فتوة ، وتفيض بشراً وسروراً ، يلمع الأمل فى ناظريك ويبسم الرضا من نضارتك ، وبين يديك صغار يرفون حواليك كالأقمار رونقاً وبهاء ، يملأون الدار جمالاً وسعادة ، ويغمرون قلبك بالغبطة والبهجة . أما زوجك فكانت روح الدار وريحانها .

وحين دخلت دارك ، أحسست أنك تسعد هناك بروح الجنة على ثرى الأرض ، وأنك تنعم بلذة الخلد فى فناء الحياة ، وشعرت أنا بأن العزب رجل تافه خسر بهاء الدنيا ورونق الأسرة .

ثم ضربت الأيام بينى وبينك — مرة ثانية — فوجدت فقدك فى قرارة نفسى ولكن قلبى كان ينبض بالرضا والطمأنينة لأنه رأى دارك تفهق بالسعادة والرفاهية .

وتناهى إلى — بعد سنة واحدة — أنك تطب لمرض ألمّ بك فتاقت روحى إليك ، أملى أستطيع أن أرفه عنك بلاء الداء أو أزيح سفعات الألم . وحين وجدت السبيل إليك ، اندفعت أنت تحدثنى حديثك ، فقلت : « . . . وذهبت أفتش عن دواء لداء عينى عند طبيب من ذوى الرأى والتجربة . ووجد الطبيب فىّ ضعفاً فاستغله فتهدّم علىّ يستنفد وفرى ويبتلع مالى . وطالت بى مدة العلاج ، وللطبيب أسلوب فيه الخديعة والأمل ، يستر من ورائه أفانين من الجهل والجشع ، وأنا لا أجد معدى عن أن أستسلم فى خضوع وأن أستخذى فى ضعف . ثم ارتفعت عن عينىّ يد الطبيب ففزعت إذ أحسست بأن نور عينى يوشك أن ينطفئ ، فتظلم الحياة فى ناظرىّ إلى الأبد ؛ ولكن الأمل كان يعاودنى آنا فآنا ، لأننى كنت أرى بصيصاً من نور يكشف لى الطريق ، فطرت — بعد لأى . إلى الطبيب أستجديه وأستعينه فوضع يده — مرة ثانية — ثم رفعها فإذا أنا أعمى قد كف بصرى

« آه ، ياصاحبى ! لقد انهار كيانى وانهد عزمى وتداعى ركنى وأصابتنى البلوى فى الصميم من قلبى ، وفى العزيز من روحى ، واعتورنى اليأس والأسى ، وآذانى ما انتهيت إليه . فكنت أنطلق إلى حجرتى وحيداً أنخرط فى بكاء مر طويل ، وأنا أشفق على أولادى أن تصدمهم النكبة فتخبوا فيهم جذوة الحياة ، وتخمد روح السعادة فى الدار ، ويعصف بنا الذل ويقتلنا الضنى وتذهب بريحنا الفاقة ، فكتمت الأمر فى قلبى وفى قلب زوجى .

« وثارت ثائرتى — ذات مرة — فانطلقت إلى الطبيب ، برفقة زوجى ، أريد أن أثأر لنفسى . وحين اندفعت إليه أحاول أن أنشب أظافرى فى عنقه انفلت من بين يدى فارتطمت بالجدار فسقطت وأنا أصرخ فى غيظ وكمد لأننى لم أشف غلة نفسى .

وانطوت الأيام وأنا أعالج لوعة نفسى بالصبر ، وأسو جراح قلبى بالتأسى ، غير أننى كنت أفزع لكل نأمة وأجزع من كل صوت وأهرب من كل صديق . ورقت مشاعرى فلازمنى الصمت والبكاء ... ثم عافت نفسى أن تنزل عن كبريائها ، وأنا من بيت دين وورع ، يترفع عن الاستخذاء فى البلوى ويسمو على الضعف فى الرزء ، فأمسكت على مضض وابتسمت على لوعة وأسلست على بث .

« ثم وقعت بين فكين من الحياة فيهما الغلظة والجفوة ، فأنكرنى رفاق فى غير رحمة ، وفزع عنى ذوو قرابتى فى غير شفقة أما الحكومة فكانت الداء العياء والبلاء الأكبر ، فلقد طردتنى من عمل لا أمل فيه ودعتنى عن مكان لا أصبو إليه ، لم ترحم صبيتى ولا أشفقت على ضعفى ، فسلبتنى راتبى ومنعتنى حقى ونبذتنى إلى الشارع .

« وفى ذات مساء جاء ساعى المدير يعتذر بلسان سيده البك عن بعض ما سطرته يد السيد فى خطاب الرفت .. ورآنى الساعى فى محنتى فانكبّ على يدى يقبلهما فى عطف ، ويبللهما بدموع المحبة والإخلاص ... دموع الرقة والإنسانية ، فانهمرت عبراتى ، انهمرت لأننى ألفيت فى الساعى كرما وشهامة على حين انطوى قلب سيده البك على ضعة وسفالة » .

وثارت شجون صاحبى فماتت الكلمات على لسانه ... سكت وجبينه يرفض عرقاً لأنه يحاول أن يكتم نوازع نفسه عنى وهى تضطرم فى عنف وشدة ... على حين أنى لم أنس أنه كان لى فى ميعة الصبا رفيق الروح فى وحدة الحياة ، وأنيس القلب فى وحشة العمر ، ونور النفس فى ظلام العيش .

وانتفض قلبى فى حرقة وأسى ... انتفض لأننى رأيت صغاراً يرفون حوالينا كالأقمار رونقاً وبهاء ، فماذا ... ماذا تخبئ لهم الأقدار ، يا قلبى ؟

كامل محمود حبيب

أهل العلم والحكم

في ريف فلسطين

للأستاذ أحمد سامح الخالدي

يرى المتتبع لتاريخ فلسطين ، أن الريف كان شاهداً لكثير من المعارك والحوادث الجسام . وقد ضمنت تربته المقدسة رفات الكثيرين من الصحابة والتابعين الأكرمين .

وقد رأينا أن نسجل على صفحات مجلة الرسالة الغراء ما عثرنا عليه فى المصادر العربية ، مما يجهله الكثيرون .

ونرجو أن يتسع المجال لنشر ما توصلنا إليه . فيرى القراء الكرام ، ما أخرجه هذا الريف من رجال العلم والحكم فى مختلف العصور ، وما تغنى به فحول الشعراء منذ القرن الهجرى الأول حتى زوال الدولة العثمانية .

وقد شهد هذا الريف (أجنادين) و (طاعون عمواس) و (ومقتلة الايوبيين) عند نهر أبى فطرس (العوجا) و (حطين) التى هزم فيها الأفرنج ، (وعين جالوت) التى قضى فيها على التتار ، إلى غير ذلك من الحوادث والمعارك الفاصلة فى التاريخ العربى

على أن الريف قد حرك خيال الشعراء ، فكان لشعر جرير والمتنبى ، وليلى الأخيلية ، وجميل ، منه نصيب أى نصيب .

ونحن نعلم ونحن نكتب هذه السطور أن بعض الجهلة والمغرضين من الكتاب ، والخصوم ، قد شوهوا جمال هذا الريف ، وقللوا من شأنه ، كما نعلم أن أهله قد نسوه ونبذوه وأهملوه فأصبحت كلمة (فلاح) أو (قروى) مرادفة لكلمة جاهل أو محتقر ، حتى صار أبناء الريف أنفسهم يشعرون أنهم من طينة غير طينة أبناء المدن المترفين . ومشى مع هذا شعور بالضعة والمذلة تملك النشء القروى وطغى عليه ، فصار إذا ما رأى طالباً نال شهادة الاجتياز إلى التعليم العالى رأى فى ذلك أمراً عجباً ؛ وإذا ما سمع باسم عالم ريفى يشغل مركزاً فى القضاء أو الحكم استغرب وتعجب ، كأنما العلم وقف على المدن والحواضر دون الريف ، فكان من جراء هذا الشعور المغلوط أن تشبع أبناء المدن بشعور مبالغ فيه فى تقدير قيمة المدن إذا قيست بالقرى ؛ فكأنما العلم منشؤه المدن ، وكأن الفلاح إنما هو أداة حراثة وحصاد يجد ويشقى لينعم بآثار جهده أبناء المدن وهم قابعون .

على أن الذى ينعم النظر يرى أنه كان لأبناء الريف فى فلسطين القدح المعلَّى فى شتى ميادين العلم والإدارة والقضاء فى مختلف العصور . إذ كانوا منذ القرون الأولى ما يزالون حملة العلم لا فى فلسطين فحسب بل نقلوا مشعلهم معهم إلى ديار الشام ومصر وسائر البلدان العربية .

ونكتفى الآن أن نسجل بعض أسماء من أبناء الريف الفلسطينى فنذكر الحسن اليازورى رئيس وزراء الدولة الفاطمية (القرن الخامس) وقاضى قضاتها وداعى دعاتها وهو من أبناء يازور ، قرية على طريق يافا .

بل لنعد قليلا إلى القرنين الأول والثانى الهجريين ، فنذكر موسى بن نصير فاتح قبرس وقائد معاوية ، وفاتح الأندلس فقد سبى والده من جبل الخليل وهو اللخمى الفلسطينى الريفى ، ثم الربيع بن يونس أبو فروة حاجب المنصور العباسى بانى بغداد ووزيره فهو من جبل الخليل أيضاً . وتعال إلى عالم الأدب فلا تنسى أن تذكر عبد الحميد الكاتب القيسرانى ، نسبة إلى قيسارية ، وقد اعتبرها ياقوت قرية الوزير الأموى ، الكاتب المنشئ ، كما تذكر القاضى الفاضل البيسانى نسبة إلى بيسان ، المدينة الريفية الفلسطينية مستشار صلاح الدين ، المؤرخ المنشئ البليغ والمصلح العمرانى المجاهد الذى قال صلاح الدين عنه إنه لم يفتح البلاد إلا بقلمه .

بل لقد أخرج الريف الفلسطينى عدداً من الأسر العلمية التى ساهمت أكبر مساهمة فى الحركة الفكرية فى القرون الوسطى فى فلسطين والشام ومصر ، فمنهم بنو كنانة العسقلانيون ، وقد تفرقوا بعد خراب عسقلان بعد القرن السادس فكان لهم فضل عظيم فى نشر العلم والفقه واللغة . ومنهم بنو غانم المقدسيون (من بورين) فى جبل نابلس الذين أسلمهم صلاح الدين خانقاه فى القدس فظل نجمهم يسطع حتى القرن العاشر . ومنهم بنو قدامة الجماعيليون ، من جماعيل جبل نابلس ، الذين نزحوا إلى دمشق فى القرن السادس فأسسوا فيها الصالحية ومدرسة أبى عمر . فكانت

مركزاً هاماً لتدريس الفقه الحنبلي خاصة مما كان له أبلغ الأثر في دمشق والشام والعالم الإسلامي عامة .

بل ماذا نقول فيما أخرجته (رامين) في جبل نابلس مما سيطلع عليه القارئ، فيما بعد ، أو ما ساهمت به (مردا) من العلماء والعالمات حتى كادوا يحتكرون العلم في تلك العصور الغابرة ويحملون مشعله دون سواهم .

هذا وقد أخرج الريف الفلسطيني عشرات بل مئات من المؤلفين والأدباء ، فهذا الجمال البشيتي (نسبة إلى بشيت من أعمال الرملة) يكتب في الألفاظ المعربة ، وهذا المحبّي صاحب سلك الدرر يقتبس من الحسن البوريني (نسبة إلى بورين جبل نابلس ، ويعتبره مرجعه ، ويعترف له بذلك في مقدمة كتابه النفيس وهو أعظم مراجعنا عن الحركة الفكرية في القرن الحادي عشر في هذه الديار .

ففي علوم القرآن ، والفقه ، ورواية الحديث ، وفي التصوّف والأصول والفرائض ، وعلم الكلام والمذاهب الأربعة ، وفي علوم اللغة ، من قواعد ونثر ونظم ، وفي إنشاء الرسائل ، وفي التاريخ والطبقات والرحلات بل وفي علوم النجوم والرمل والزايرجا ، في جميع هذه العلوم التي تؤلف مادة العلوم الإسلامية منذ القرون الأولى ساهم أهل الريف في فلسطين مساهمة تضعهم في الصف الأول من خدمة الثقافة والعلوم في هذه الديار .

وقد استثنينا من بحثنا المدن الفلسطينية الكبرى كالقدس ، والرملة ، وغزة والخليل ، ونابلس ويافا وعكا وصفد ، واعتبرنا أرسوف وقيسارية وعسقلان[1] من بلدان الريف لا المدن .

ولم نستثن الناصرة على اعتبار أنها كانت قرية من أعمال صفد ، وحيفا لأنها كانت بليدة ، وبيسان وهي أقرب إلى المدن الريفية منها إلى المدن والقصبات .

وقد رتبنا قرى الريف ، على الحروف الأبجدية ليسهل الرجوع إليها ، واعتمدنا معجم ياقوت كأساس للقرى العربية ، كما أثبتنا غير ذلك من القرى مما ورد ذكره في المصادر العربية الأخرى .

(١) في السبكي ج ٢ — ص ٣ . سمع البخاري في قيسارية وعسقلان في أوائل القرن الثالث .

مظاهر فلسطين ، وبقاعها ، وأنهارها ، وجبالها في المصادر العربية :

أجناد الشام[1] : لما فتح العرب الشام قسّموها إلى خمسة أجناد وهي جمع جُند ومنها جند فلسطين وجند الأردن وجند دمشق وجند حمص وجند قنسرين . قال ابن جابر اختلفوا في الأخبار فقيل سمّى المسلمون فلسطين جنداً لأنه جمع كوراً ، والتجند التجمّع ، وجندت جنداً أي جمعت جمعاً ، وكذلك بقية الأجناد . وقيل سميت كل ناحية بجند لأنهم كانوا يقبضون أعطياتهم فيه . قال الفرزدق :

فقلت ماهو إلا الشام تركبهُ كأنما الموت في أجناده البغرُ

وجاء في معجم ياقوت ج ٦ — ٣٩٧ عن فلسطين ما يأتي : «العرب في إعرابها على مذهبين : منهم من يقول فلسطين ويجعلها بمنزلة مالا ينصرف ويلزمها الياء في كل حال فيقول هذه فلسطينُ ورأيت فلسطينَ ومررت بفلسطين . ومنهم من يجعلها بمنزلة الجمع ويجعل إعرابها بالحرف الذي قبل النون فيقول هذه فلسطون ورأيت فلسطين ومررت بفلسطينَ . كذا ضبطه الأزهري والنسبة إليه فلسطيّ . قال الأعشى :

ومثلك خَوْدٌ بادن قد طلبتها وساعيت معصياً لدنيا وُشاتَها
متى تُسق من أنيابها بعد هجعة من الليل شرباً حين مالت طلاتُها
تخلـه فلسطيا إذا ذقت طعمه على ربذات النى حمسٌ لثاتُها

وهي آخر كور الشام من ناحية مصر قصبتها بيت القدس . ومن مشهور مدنها عسقلان والرملة وغزة وأرسوف وقيسارية ونابلس وأريحا وعمان ويافة وبيت جبرين[2] أولها رفح من ناحية مصر وآخرها اللجون (مجرو — أو تل المتسلم) من ناحية الغور عرضها من يافا[3] إلى أريحا نحو ثلاثة أيام ، وزغر (بحيرة لوط

(١) معجم البلدان ج ١ — ١٢٥ .
(٢) عاد ياقوت فاعتبر بيت جبرين (بلداً بين بيت المقدس وغزة) كما قال عن قيسارية (أنها في زمانه أشبه بالقرى منها بالمدن) وأما عن أريحا فقال تحت كلمة الغور ، (ومن قراه أريحا .)
(٣) يكتبها ياقوت أحياناً بالهاء (يافه) .

بين ابن خلدون ومنتسكيو :

القوانين والمجتمع

للأستاذ محمد محمود زيتون

عاش ابن خلدون المغربي المسلم في القرن الرابع عشر ، وتأمل التاريخ فوضع موسوعته الخالدة «المقدمة» ، وهي أول بحث علمي منظم في الاجتماع ، وبعده بأربعة قرون جاء منتسكيو الفرنسي المسيحي بكتابه «روح القوانين» Esprit des lois استغرق في وضعه عشرين عاماً قضاها في دراسات واسعة في المجتمعات وظروفها السياسية والاجتماعية والدينية التي تحدد قوانينها .

عني ابن خلدون بالاجتماع الانساني وما يلحقه من العوارض والأحوال كما اهتم منتسكيو بالمناخ والدين والقوانين والنظم الحكومية والتقاليد والعادات وأحوال المعيشة ، وكلها أمور تتحكم في المجتمع وتؤلف «الروح العامة» Esprit général وهي ما يحدد خصائص الأمة ، ويميز شخصيتها عن سائر الأمم . وتقتضي هذه الروح العامة يجب أن تسن القوانين «ويجب أن تكون القوانين ملائمة للشعب الذي من أجله سُنَّتْ بحيث إذا لاءمت شعباً آخر غيره كان ارتباك عظيم . . . ويجب أن تكون متمشية مع طبيعة البلد ومناخه . . . ومع طبيعة أرضه وموقعه واتساعه ، ومع نوع المعيشة التي يعيشها الشعب من زراعة أو صيد أو رعي ، ويجب أن تتفق أيضاً مع مقدار الحرية التي كفلها الدستور ، ومع ديانة السكان وميولهم وثروتهم وتعدادهم وتجارتهم وعاداتهم وأحوالهم العامة . . . في كل هذه النواحي يجب أن نعالج القوانين » .

وينشأ الاجتماع الانساني — في رأي ابن خلدون — عن الإحساس بالضعف من جانب الفرد في الحصول على الغذاء والسلاح ، وعن الظلم والعدوان مما لا يزال عالقاً بالنوع الإنساني . أما منتسكيو فيرى أن ما يقرب بين الحيوان وأفراد جنسه إنما هي بوادر الخوف المشترك ، وكذلك الإنسان .

ولقد أراد «دوركيم» زعيم المدرسة الاجتماعية الفرنسية

أو البحر الميت) ديار لوط وجبال الشراة إلى آيلة (العقبة) كله مضموم إلى جند فلسطين ، وغير ذلك وأكثرها جبال والسهل فيها قليل[١] .

ولو أن طيراً كلفت مثل سيره   إلى واسط من إيلياء[٢] لكلت
سما بالمهاري من فلسطين بعد ما   دنا الشمس من فيء إليها فولت

قال البستي ، وكان ورد بغداد رسولاً من غزنة يذكر فلسطين والتزم ما لا يلزمه من الطاء والياء والنون يمدح عميد الرؤساء أبا طاهر محمد بن أيوب وزير القادر بالله ثم القائم :

العبـــد خادم مولانا وكاتبه   ملك الملوك وسلطان السلاطين
قد قال فيك وزير الملك قافيةً   تطوى البلاد إلى أقصى فلسطين
كالسحر يخلب من يرعيه مسمعه   لكنه ليس من سحر الشياطين
فارعه سمعك الميمون طائره   لازال حليك حلى الكتب والطين
وعشت أطول ما تختار من أمد   في ظل عز وتوطيد وتوطين

وقال ابن عرمة :

كأن فاها لمن تؤنسـه   بعد عبوب الرقاد والعَلل
كأس فلسطية معتقـة   شيبت بماء من مزنة النسل

قال ابن الكلبي في قوله تعالى (ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم) هي أرض فلسطين . وفي قوله تعالى . (الأرض التي باركنا فيها للعالمين) قال هي فلسطين .

قال عدي بن الرقاع :

فكأني من ذكركم خالطتني   من فلسطين جلس خمر عقار
عتقت في الدنان من بيت راس[١]   سنوات وما سبتها التجار
فهي صهباء تترك المرء أغشى   في بياض العينين منها احمرار

(١) يلاحظ أن جند فلسطين كان يحدها من الشمال اللجون ومرج بني عامر ، ويدخل فيه وادي العربة وجبال الشراة في شرق الأردن الآن والبلقاء . أما الغور والقسم الشمالي من فلسطين الآن بما في ذلك حيفا وعكا وصور فقد كانت تابعة لجند الأردن .

(٢) الإسم الذي أطلقه الرومان على القدس وهو إيليا كابيتولينا .

(١) هي إحدى المدن العشرة الاغريقية المدعوة بالديكابولس Decapolis

أحمد سالم الخالدي

للكلام بقية

الحديثة أن يصبغ جهوده في الاجتماع بالصبغة العلمية فبرز في هذا العلم ناحيتيه « الاستقرارية Statipue والانتقالية Dynamique كما هو معروف في العلوم البحتة كالميكانيكا والكهربائيه وغيرها » .

فطن ابن خلدون إلى هذا قبل «دور كيم» إذ يرى أن المجتمع ينتقل من البداوة إلى الحضارة ، وهما حالتان طبيعيتان تعرضان له حتى توفرت الظروف . ويحدث هـذا التطور تبعاً لنوع المعاش وانتقاله ومن البسيط إلى المركب ، من الضروري إلى الـكمالي ، ومن البداوة إلى الحضارة : فأهل البدو على الفطرة الأولى ، وهم أقرب إلى الخير من أهل الحضر ، ونظراً « لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي ، وبعدهم عن الحامية ، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب ، قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيهـا بغيرهم » فهم لذلك أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر .

ومن مظاهر البداوة : « العصبية » التي تكون بالالتحام بالنسب بين القبائل و« سكنى البدو لا يكون إلا للقبائل أهل العصبية» التي بها « تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم » وتـكون الرياسة لمن كان « أعرق في البـداوة وأكثر توحشاً » والرياسة في نظر ابن خلدون سؤدد ، وإذا انقلب السؤدد إلى الحـكم بالقهر والغلبة انتقلت الرياسة إلى الملك وطرأت على المجتمع عوارض الترف والنعيم والانقياد ، ويعرض له التنافس في معالي الأمور كما تعتوره الوحشية وبكل ذلك يكون المجتمع في صميم طور الحضارة لأن المعاش كان ضرورياً فصار كمالياً ، ولأن « الحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع » . والملك يتسع إذا كان أساسه الدين أولا .

هذا هو المجتمع الدنياميكي عند ابن خلدون . أما منتسكيو فيستنتج قوانين طبيعية أولى هي أسباب التطور في المجتمع ، منها السلم الناشئ عن شعور الفرد بضعفه إزاء المتوحشين فيشعر « بالدونية » ولا يشعر بالمساواة ، ولا يرغب في المهاجمة فيسالم ، ويتلو الشعور بالسلم الشعور بالحاجة ثم الشعور بالفرحة المشتركة .

ومن أهم العوامل الفعّـالة في المجتمع الإنسـاني « الدين » لما له من أثر في الأخلاق والتربية ، وكذلك في السياسة والملك . ويفضل ابن خلدون الأحكام الشرعية على الأحكام التعليمية لأن الأولى يكون الوازع فيها هو الضمير لا المخافة والانقياد كما هو الشأن في الأخرى . لهذا يعتبر التعاليم الشرعية هي أصول التربية والأخلاق، وكل ما عداها مفسد ضار ، « فقد تبين أن الأحكام السلطانيـة والتعليمية مفسدة للبأس ، لأن الوازع فيها أجنبي ، وأما الشرعية فغير مفسدة لأن الوازع فيها ذاتي » .

وللدين الأثر القوى في الدول العـامة الاستيلاء ، العظيمة الملك ، « لأن الملك إنما يحصل بالتغلب ، والتغلب إنما يكون بالعصبية ، واتفاق الأهواء على المطالبة ، وجمع القلوب ، وتأليفها ، إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه ... وسرُّه أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل ، حصل التنافس ، وفشا الخلاف ، وإذا انصرفت إلى الحـق ، اتحدت وجهتها فذهب التنافس ، وقل الخلاف ، وحسن التعاون ، والتعاضد ، واتسع نطاق الـكلمة لذلك فعظمت الدولة » . والدعوة الدينية في نظره تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية ، والإمام خليفة عن صاحب الشرع .

أما منتسكيو — مع سعة إحاطته بالدين المقارن — فإنه ينظر إلى الدين من حيث صلاحيته للدولة « فسوف لا أعالج مختلف أديان العالم إلا من حيث علاقتها بالخير الذي تحققه للدولة » . ويقول « إن الأمير الذي يحب الدين ويخشاه إنما هو أسد يذعن لليد التي تدلله ، أو الصوت الذي يناغيه ، والأمير الذي يخشى الدين ويبغضه إنما هو الوحش الضاري الذي يعض السلسلة التي تمنعه من الهجوم على المارة ، وأما ذلك الذي لا دين له أصلا فهو ذلك الحيوان الرعب الذي لا يشعر بحريته إلا عند ما يهاجم ويفترس » .

لهذا أخـذ منتسكيو يعرض على كل حكومة ما يناسبها من الأديان والمذاهب حسب اعتدال هـذه الحـكومة أو استبدادها « لأن الدين يتبع عادة لون الحـكومة » ولأن الدين خير ضامن للناس إخلاص الناس ، فإذا وجب ألا يتعارض الدين مع القوانين فقد وجب كذلك ألا يتعارض مع الأخلاق .

يفترض ابن خلدون القوضى قبـل الملك وبعده مما يوجب السياسة الدينية التي يقـررها الشرع ، أما السياسة العقلية التي يفوضها العقلاء فإنها لا ترقى إلى غاية الأحكام الشرعية . « فالسياسة والملك هي كفالة للخلق ، وخلافة لله في العباد لتنفيذ أحكامه

بهم ، وأحكام الله فى خلقه وعباده إنما هى بالخير ومراعاة المصالح كما تشهد به الشرائع ، وأحكام البشر إنما هى من الجهل والشيطان».

وأنواع الملك ثلاثة : الملك الطبيعى ، والملك السياسى ، والخلافة . فالأول حمل الكافة على الغرض والشهوة ، والثانى حملهم على العقل فى جلب النفع الدنيوى ، ودفع الضرر ، والأخير هو حملهم على الشرع دنيا وأخرى ، وهى خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا .

وإذ تتكون الدولة على هذا النحو ، يستقصى ابن خلدون أطوارها الخمسة فيما يلى : — الظفر والاستبداد والترف والمسالمة والإسراف : ويرى أيضاً أن المال والجند هما العاملان الرئيسيان فى إقامة دعائم الملك إذا وجدا ، وتقويضها إذا فقدا .

ويستطرد من البحث فى الخلافة التى هى الملك الصحيح أو الدولة المثالية إلى البحث فى ماهيتها وشروطها وخططها التى فى مقدمتها الصلاة ، ثم تطورها وانتقالها إلى الملك ، ولا ينسى الحروب وأسبابها التى لا تعدو أن تكون من هذه الأربعة : — غيرة ومنافسة ، عدوان ، غضب لله ولدينه ، غضب للملك . والنوعان الأولان حروب بغى وفتنة ، والآخران حروب جهاد وعدل .

والعادات تتأثر بالسياسة ، فالناس على دين الملك ، وعوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه ، والمغلوب يقلد الغالب ، وتعاقب الأمم والأجيال فى الملك يؤدى إلى المخالفة فى العادات باطراد . والفضيلة دعامة قوية لقيام الدولة ، والعدل أساس الملك ، والظلم فساد للدولة وإفساد للرعية .

وعند منتسكيو أن القوانين علاقات rapports ضرورية تنجم عن طبائع الأشياء ، والوضعية منها أو السياسية التى تواضع عليها العقل الآنسانى ماهى إلا حالات يتجلى فيها العقل ، وهذه القوانين دولية وتشريعية ومدنية : الأولى تتعلق بما بين الدول من علاقات ، فهى القانون الدولى العام ، والثانية تتعلق بما بين السلطات التى تنظم الدولة من جهة ، وبما بينها وبين الدولة من جهة أخرى ، والأخيرة تتعلق بتنظيم العلاقات بين الأفراد . ثم يتحدث عن العلاقة بين القوانين الوضعية وبين شكل الحكومة ، والأسس التى يقوم عليها الحكم والبيئة الجغرافية والاقتصاد وكل هاتيك العناصر التى تسمى « الروح العامة » .

والحكومات عنده أربع : الجمهورية وهى إما ديمقراطية أو ارستقراطية ، والملكية ، والمستبدة ، ولكل حكومة فضيلة تخصها ، فالديمقراطية فضيلتها حب الوطن أو حب المساواة ، والأرستقراطية فضيلتها الاعتدال ، والملكية فضيلتها الشرف ، والاستبدادية صفتها السياسية الخوف ، فهى إذن فضائل سياسية لا تمت بصلة إلى الدين أو الأخلاق .

ويقول ابن خلدون « إن الملك إذا كان قاهراً باطشاً بالعقوبات منقباً عن عورات الناس ، وتعديد ذنوبهم ، شملهم الخوف والذل ولاذوا منه بالخديعة والمكر والكذب ، فتخلقوا بها وفسدت بصائرهم وأخلاقهم ، وربما خذلوه فى مواطن الحرب ... »

وللاصلاح الاجتماعى حدود فى منتسكيو إذ يقول « إذا أراد أمير أن يغير من أحوال شعبه فعليه أن يصلح بالقوانين ماهو مؤسس بالقوانين ، وأن يغير بالعادات ماهو مؤسس بالعادات ، وإنها لسياسة عمياء أن يغير بالقوانين ما يجب تغييره بالعادات » .

أما ابن خلدون فإنه ينشد الأصلاح الاجتماعى الذى غايته الاقتداء « إذ هو — أى التاريخ — يوقفنا على أحوال الماضيين من الأمم فى أخلاقهم ، والأنبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين والدنيا » .

فالظواهر الاجتماعية والعوامل الطبيعية ذات علائق بالقوانين المشتقة من الروح العامة التى تنتج عن تفاعل هذه العوامل ، وتلك الظواهر فى كل مجتمع على حدة .

ومن هذا العرض الموجز يرى القارىء مدى الائتلاف والاختلاف بين ابن خلدون رائد التاريخ ، وبين منتسكيو رائد السياسة وكيف التقيا فى ميدان الاجتماع .

محمود محمود زيتونه

صدى مقتل الحسين

فى التاريخ الإسلامى والأدب العربى

للأســـتاذ ضياء الدخيلى

(بقية مانشر فى العدد الماضى)

ولما كان يوم عاشوراء من سنة ٥١٦ هـ جلس الخليفة الآمر بأحكام الله على باب (الباذهنج) فى القصر وكان ذلك بعد قتل الأفضل وعود الأسمطة إلى القصر — على كرسى جريد بغير مخدة متلثما هو وجميع حاشيته ، فسلم عليه الوزير المأمون وجميع الأمراء الكبار والصغار بالقراميز (ويقول البعض هى على ما يظهر ثياب خاصة ملونة بالقرمز) وإذن للقاضى والداعى والإشراف والأمراء بالسلام عليه وهم بغير مناديل ملثمون حفاة ، وعبىء السماط فى غير موضعه المعتاد وجميع ماعليه خبز الشعير والحواضر على ماكان فى الأيام الأفضلية وتقدم إلى والى مصر والقاهرة بأن لا يمكنا أحداً من جمع ولا قراءة مصرع الحسين وخرج الرسم المطلق للمتصدرين والقراء والوعاظ والشعراء وغيرهم على ما جرت به عادتهم .

قال : وفى ليلة عاشوراء من سنة ٥٢٧ اعتمد الأجل الوزير المأمون على السنة الأفضلية من المضى إلى تربة (قبر) أمير الجيوش وحضور جميع المتصدرين والوعاظ وقراء القرآن والمكث إلى آخر الليل والعودة إلى داره ، واعتمد فى صبيحة الليلة المذكورة مثل ذلك وجلس الخليفة على الأرض متلثما يرى به الحزن وحضر فى شرف بالسلام عليه والجلوس على السماط بما جرت به العادة .

هذا ماكان يحدث من احتفالات فى ذكرى مصرع سيدنا لحسين (ع) قبل أن يشاد الضريح الحسينى حيث دفن فيه رأس الإمام الشهيد منقولا من عسقلان . أما بعد ذلك فقد تحدث ابن الطوير عما كان يصنع فى عاشوراء فقال : إذا كان اليوم العاشر من المحرم احتجب الخليفة عن الناس ، فاذا علا النهار ركب قاضى القضاة والشهود وقد غيروا زيهم ليكونوا كما هم عليه اليوم (فى عهد الناقل ابن الطوير) ثم صاروا إلى المشهد الحسينى وكان قبل ذلك يعمل فى الجامع الأزهر ، فاذا جلسوا فيه ومن معهم من قراء الحضرة والمتصدرين فى الجوامع جاء الوزير فجلس صدراً والقاضى والداعى على جانبيه والقراء يقرءون نوبة بنوبة وينشد قوم من الشعراء غير شعراء الخليفة شعراً يرثون به أهل البيت عليهم السلام ؛ فان كانا لوزير رافضاً تغالوا ، وإن كان سنياً اقتصدوا .

ولا يزالون كذلك إلى أن تمضى ثلاث ساعات فيستدعون إلى القصر بنقباء الرسائل فيركب الوزير وهو بمنديل صغير إلى داره ويدخل قاضى القضاة والداعى ومن معهما إلى باب الذهب فيجدون الدهاليز قد فرشت مصاطبها بالحصر بدل البسط وينصب فى الأماكن الخالية من المصاطب دكك لتلحق بالمصاطب لتفرش ، ويجدون صاحب الباب جالساً هناك فيجلس القاضى والداعى إلى جانبه والناس على اختلاف طبقاتهم فيقرأ القراء وينشد المنشدون أيضاً ثم يفرش عليها سماط الحزن وفيه مقدار ألف زبدية من العدس والملوحات والمخللات والأجبان والألبان الساذجة وأعسال النحل والفطير المغير لونه بالقصد فاذا قرب الظهر وقف صاحب الباب وصاحب المائدة وأدخل الناس للاكل منه فيدخل القاضى والداعى ويجلس صاحب الباب نيابة عن الوزير والمذكوران إلى جانبه وفى الناس من لايدخل ولا يلزم أحد بذلك فاذا فرغ القوم انفصلوا إلى أماكنهم ركباناً بذلك الزى الذى ظهروا فيه وطاف النواح بالقاهرة ذلك اليوم وأغلق البياعون حوانيتهم إلى جواز العصر فيفتح الناس بعد ذلك ويتصرفون . أما الدولة الأيوبية فقد اتخذت يوم عاشوراء عيداً ومن أيام الأفراح لإرغام آناف الشيعة وإيذائهم .

هذا هو أثر فاجعة كربلاء فى التاريخ الإسلامى .

أما فى الأدب العربى فقد أوجدت فيه ناحية قاتمة يعلو فيها الصراخ والعويل وتتردد فى جوانبها الثورة على الظلم القبيح وامتداح الإباء وشرف النفس والتمنع عن دنايا الأمور . كان هذا القسم من الأدب العربى طافحاً بتصوير مآسى كربلاء بخطوط واضحة سوداء واجتهد فى أن يبرز كل جانب من جوانبها مؤلماً يهطل بالدموع ويثير الآهات والحسرات خاصة بعد أن كان ترديد فاجعة كربلاء على الجماهير مهنة تدر الربح الوفير كما كان حال النواح والمنشدين فى العصر الفاطمى بمصر كما تقدم على ما نقل المقريزى فى الخطط وكما هو الشأن اليوم فى العراق وإيران والهند وجبل عامل وغيرها من الأصقاع الشيعية ، ويدعى هؤلاء (خطباء المنبر الحسينى) ويسمون فى اللغة الفارسية (روزه خون) وهى تحريف (روضه خون) أى قارئ الروضه أى روضة الإمام الشهيد يعنى قبره الكريم .

سلطان المماليك

فى العهد العثمانى

للأستاذ عبد الباسط محمد حسن

كثيراً ما يتساءل المؤرخون والباحثون : لماذا لم يتخلص السلطان سليم العثمانى من البقية الباقية من المماليك بعد أن تم له فتح مصر فى سنة ١٥١٧ م ؟ ولماذا لم يقض عليهم قضاء نهائياً حتى يستريح منهم ومن أحقادهم .. ويخلص البلاد من شرورهم وآثامهم ؟

أكان ذلك ناتجا عن ضعف الدولة العثمانية .. وعجزها عن القضاء عليهم .. أم كان ذلك .. وفقا لخطة موضوعة .. وسياسة مرسومة ؟

الواقع أن السلطان سليما ، كان رجلا حربيا وإداريا من الطراز الممتاز .. بحيث أننا لا نستطيع أن نقول إنه أخطأ فى عمله هذا .. خصوصاً وأنه لم يرتجل سياسته التى سار عليها فى حكم البلاد .. بل أنه فكر فيها كثيراً قبل أن يضعها .. وبقى فى مصر .. فترة من الزمن بعد انتصاره على قوات المماليك ، للتعرف على نظم الحكم فيها ، ولوضع سياسة ثابتة ، تضمن بقاء مصر تابعة له وللدولة العثمانية .. ولو كان السلطان يرى فى وجود المماليك بمصر خطراً يهدده . لتخلص منهم ولأفناهم عن آخرهم ..

لقد رأى السلطان ببعد نظره ، وثاقب فكره أن بعد مصر عن مقر الحكم فى الآستانة .. قد يساعد حكامها وولاتها على الاستقلال عن الباب العالى ، فقضى بتوزيع السلطة بين عدة عناصر : فالباشا ومعاونوه يمثلون السلطان العثمانى ويحكمون الولاية ويشرفون على إدارتها .. والديوان يساون الباشا فى الحكم ، وله حق عزله والاتصال رأساً بالباب العالى .. والحامية العثمانية تشترك فى الحكم والإدارة أيضا .. إلى جانب مهمتها الحربية .. ثم هناك إلى جانب هذه الهيئات الثلاث هيئة أمراء المماليك من رجال العسكرية .. يشتركون فى الحكم والإدارة وفى

وقد ألفت كتب فى هذا الموضوع استعرضت تاريخ الفاجعة بصورة مسهبة ضفضافة وشحنت بالقصائد المدولة باللغة الفصحى والعامية كما أنه نشأ فى الأدب الفارسى والأدب الهندى والتركى أيضاً قصائد طويلة تردد مأساة كربلاء ونرى أبناء هذه الأمم ينشدونها عندما يقدمون العراق لزيارة قبر الإمام الشهيد فى كربلاء أو أبيه فى النجف الأشرف . وأن أبرز رثاة الحسين (ع) فى الأدب العربى هو السيد حيدر الحلى وقد عرفنا به كتاب (المراقيات) بأنه كان رحمه الله شاعر العراق على الإطلاق حلى البلد (نسبة إلى مدينة الحلة على الفرات قرب أطلال بابل التاريخية) هاشمى النسب ينتهى نسبه إلى الحسين بن على بن أبى طالب (ع) وقد ولد فى شعبان فى سنة١٢٤٦ وتوفى فى ربيع الآخر من سنة ١٣٠٤ هـ وعرف بشاعر أهل البيت حيث انتحى فى أكثر شعره مدحهم ورثاهم ؛ وقد بلغ من رثائهم درجة سامية لم يدع فيها سبقاً لمستبق من مقدمى الشعراء ومتأخريهم . على أنه لم يقصر فى النسيب والفخر والمديح عن غيره من فطاحل شعراء العراق قال فى رثاء سيدنا الحسين

قد عهدنا الربوع وهى ربيع   أين ..؟ لا أين انسها المجموع
درج الحى أم تتبع عنها   نجع الغيث أم بدهياء ريعوا
لا تقل شملها النوى صدعته   إنما شمل صدرى المصدوع
كيف أعدت بلسمة الهم قلبي   وثراها يرق به اللسوع
سبق الدمع حين قلت سقتها   فتركت السما وقلت الدموع
فكأنى فى صحنها وهو قعب (١)   أحلب المزن والجفون ضروع
بت ليل التمام أنشد فيها   هل لماض من الزمان رجوع
شاطرتنى بزعمها الداء حزناً   حين أنت وقلبي الوجوع
ياطروب المشى خلفك عنى   ما حنينى صبابة وولوع
لم يرعنى نوى الخليط ولكن   من جوى الطف راعنى ماروع
قد عذلت الجزوع وهو صبور   وعذرت الصبور وهو جزوع
عجباً للعيون لم تغد بيضا   لمصاب تحمر فيه الدموع
وأسى شابت الليالى عليه   وهو للحشر فى القلوب رضيع
أى يوم بشفرة البغى فيه   عاد أنف الاسلام وهو جديع
ما لشمس النهار فيه طلوع   ولشمس الحديد فيه طلوع
أينما طارت النفوس شعاعاً   فلطير الردى عليها وقوع
قد تواصت بالصبر فيه رجال   فى حشى الموت من لقاها صدوع

الخ

ضياء الدخيلى

(١) القعب هو القدح الضخم .

الدفاع عن حدود البلاد وقد كان فى مقدور السلطان وفى استطاعته أن يقضى على قوات المماليك .. خصوصاً وأن الدولة العثمانية كانت فى ذلك الوقت فى أوج قوتها ومجدها .. وكانت لها ممتلكات واسعة فى البلقان والأناضول والشام وأرض الجزيرة والفرات، وكانت تتمتع بسيادة كبيرة على شبه جزيرة العرب .. فكان فى إمكانه أن يشتت شمل هؤلاء المماليك ويفرق جموعهم .. ويقضى عليهم قضاء مبرما ، حتى لا تقوم لهم بعد ذلك قائمة .. ولكن السلطان سليم أبقاهم فى البلاد ، لأنه كان فى أشد الحاجة إليهم وإلى جهودهم .. كما أن بقاءهم فى مصر كان متمشيا مع سياسة الدولة العثمانية فى حكم الشعوب الخاضعة لها .. فالدولة العثمانية لم تغير كثيراً من نظم البلاد المفتوحة ولا سيا أن أمراء المماليك عاشوا فى مصر مدة طويلة .. وعرفوا أحوالها ، وخبروا عادات أهلها ونظم الحكم فيها .. فكان من السهل عليهم أن يديروا دفة الحكم فى البلاد ، بخلاف العثمانيين الذين لم تكن لهم سابقة عهد بمصر ولا بالمصريين . ومن ناحية أخرى رأى السلطان سليم أن يترك أمراء المماليك يشتركون فى حكم البلاد ، ليحفظوا التوازن بين الوالى ورجال الحامية العثمانية وحتى لا يفكر أحد فى الاستقلال بحكم البلاد والخروج عليه فى يوم من الأيام .

يقول على باشا مبارك فى خططه التوفيقية .. الجزء السابع (لما أخذ السلطان سليم مصر . ورأى غالب حكامها من المماليك الذين ورثوها عن ساداتهم ، رأى أن بعد الولاية عن مركز الدولة .. ربما أوجب خروج حاكمها عن الطاعة .. وتطلعه للاستقلال .. فجعل حكومة مصر منقسمة إلى ثلاثة أقسام .. كل قسم منها يشرف على القسمين الآخرين) ..

من هذا يتبين أن إبقاء المماليك فى البلاد ، وإشراكهم فى الحكم ، كان الغرض منه إيجاد التوازن بين الهيئات الحاكمة ، والاستفادة بهم فى حكم مصر ..

ظلت سياسة السلطان سليم معمولا بها طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر .. واستمر هذا النظام نافذاً طوال هذه المدة . . كانت فيه الدولة العثمانية حافظة لمركزها وسمعتها الحربية ؛ فلما ظهر ضعف تركيا الحربى وانتشر الفساد والاضطراب داخل البلاد لم يعد هذا النظام نافذاً .. وأخذت قوة المماليك تزداد شيئاً فشيئاً حتى أصبحت لهم السلطة الفعلية فى البلاد . .

والسبب فى ذلك أن المماليك كانوا يشترون الرقيق من جورجيا والقوقاز وبلاد الجركس وكانوا يأتون بهم إلى مصر .. ويدربونهم فى سن مبكرة على أعمال الحرب والفروسية .. ويعلمونهم الكتابة والقراءة ويحفظونهم القرآن .. حتى إذا بلغوا الثامنة عشرة ، رقوهم إلى رتبة البكوية وحردوهم ومنحوهم ما لا وأرضا وجوارى وهؤلاء يتزوجون بدورهم ... ويملأون بيوتهم بالرقيق كما فعل أسيادهم من قبل ... وهذا كان سببا فى كثرة عددهم فى البلاد ... (١) حتى إن عدد المماليك الكبار فى أواخر القرن الثامن عشر عند زيارة (فولنى) لمصر بلغ نحو (٨٥٠٠ مملوك) ينفق الواحد منهم على سلاحه وملابسه وزوجاته وسراريه نحو (٢٥٠٠ جنيه) فى العام على تقدير فولنى . يقول على باشا مبارك (وأخذت البكوات تكثر من المماليك وتتقوى بها حتى فاقت بقوتها الدولة العثمانية فى الديار المصرية ، فآل الأمر والنهى لهم فى الحكومة ... وصارت سلطة الدولة العثمانية فى الديار المصرية غير حقيقية . ولو كانت الدولة العثمانية تنبهت لهذا الأمر ومنعت بيع الرقيق لكانت الأمور باقية على ماوضعها السلطان) ...

كان نتيجة لهذه السياسة ... أن قوى نفوذ المماليك لدرجة كبيرة جداً ... حتى أنهم كانوا يعزلون الولاة حينما يشاءون . زد على ذلك أن ضباط الجيش وفرقه وهم أعضاء الديوان قد تدهورت حالتهم الأدبية ، وأفقدتهم عيشة الخمول والكسل صفاتهم الحربية الأولى ... فتقربوا من بكوات المماليك الذين استأثروا بالسلطة وأصبح بيدهم الأمر والنهى فى البلاد « حتى إن أحد بكواتهم وهو على بك الكبير » استطاع ان يعلن استقلال مصر فى ١٧٦٩ .. كما أن المماليك كانوا كثيراً مايماطلون الدولة فى إرسال الخراج . . « ولرغبة(٢) الدولة فى استرضائهم لكيلا يمنعوا الخراج عنها ... كانت لا تكاد تبعث بوال من قبلها ، حتى تعزله وتعين بدله ... حتى لقد بلغ عدد ولاتها منذ الفتح العثمانى إلى الاحتلال الفرنسى ... أى من سنة ١٥١٧ م — ١٧٩٨ نحو ٢٨٠ سنة أكثر من مائة وال قل من أقام منهم

(١) فتح مصر الحديث أو نابليون .. للأستاذ حافظ عوض .. عن كتاب ..

Voyage en Egypte et eu Syrie pendant les années 1783 — 84 — 85 .. C. F. Volney.

(٢) فتح مصر الحديث أو نابليون .. للأستاذ أحمد حافظ عوض ص ١٦

أكثر من عامين ... وكثير من بدل كل عام »

بهذا نكون قد بينا الأسباب التي دعت السلطان سليم إلى ترك المماليك في مصر ... وإشراكهم في الحكم . ونكون أيضاً قد استعرضنا حالتهم من وقت الفتح العثماني ... وبينا العوامل التي أدت إلى زيادة نفوذهم في البلاد ... وهناك ناحية أخرى يجب ألا نغفلها .. وهي حالة الشعب المصري تحت حكم هؤلاء المماليك .

قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، كانت التجارة تمر عن طريق مصر ... فكان المماليك يأخذون منها ما يشاءون من ضرائب وهدايا ورشا ... هذا غير السلب والنهب ... وكانوا قانعين بما يفرضونه من الضرائب على المتاجر الأجنبية ... وما يدخل في خزائنهم من المال ... بحيث لم يروا ضرورة لظلم الفلاح ... وأخذوا يعيشون عيشة بذخ وترف ... فيرتدون أحسن المنسوجات ... ويسكنون أفخم القصور ... ولكن الحالة لم تدم على ذلك ... فعندما تغير طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح ... قلت الأموال التي كانت تتدفق على مصر ... فلم يجد المماليك بداً من فرض ضرائب باهظة على الأهالي ... ولم يكن شرههم إلى المال قاصراً على حاجتهم إليه ... فلو كان الأمر كذلك لهان الأمر ... ولكن نظامهم قضى بألا يقوم لواحد منهم شأن إلا بالإكثار من المال وذلك لشراء المماليك ... والإغداق عليهم من أمواله وجاهه حتى يظلوا على ولائهم ... لهذا أخذوا يمتصون دماء الشعب ، ويحملونه مالا طاقة له به[1] . حتى وصل الحال بالفلاح المصري إلى أنه لم يجد سكنا يقيم فيه . فكان يلتحف العراء ، وذو اليسار منهم يعيش في أكواخ من الطين ، ولا يجد الواحد منهم ما يأكله سوى الخبز الأسود المصنوع من الذرة والحلبة ... يتناوله بالبصل النيء أو الأعشاب التي يجمعها من حروف الترع والمجاري ، ويطبخها بغير إدام ، وكان رداؤه قطعة من القماش المصبوغ بالنيلة وهي ميراث الفلاحين وإليها ينسبون (أصحاب الجلاليب الزرقاء) ... وأما الغنى والرفاهية ، والبذخ ، والذهب ، والفضة ... فقد كانت للمماليك ... ذكر فولني في كتابه (رحلة إلى مصر وسوريا) أن علي بك الكبير ابتاع خنجراً مرصعاً بالجواهر الكريمة بمبلغ ٢٢٥ ألف جنيه ، وأنه حينما خذله أنصاره ، التجأ إلى صديقه الشيخ ظاهر في عكا ، وكان مقدار ما أخذه معه من الأموال (حوالي أربعة وعشرين ألف جنيه) ، يحملها على ٢٥ جملاً ، وكان معه من المصاغ والحلي ما يساوي أربعة أضعاف ذلك . ويذكر أحد المؤرخين الذين زاروا مصر بعد سقوط القاهرة في أيدي الفرنسيين أن الجنود الفرنسيين كانوا يجدون في ملابس كل واحد من المماليك الصرعى في ميدان القتال في واقعة امبابة مالا يقل عن مائتين أو مائتين وخمسين قطعة من الذهب عدا ما تقدر به ملابس الواحد منهم وطيلسانه وسلاحه وسراج جواده من المبالغ الطائلة ، هذا في الوقت الذي لم يكن أهل مصر يجدون فيه ما يأكلون !

وكان المماليك كثيراً ما يتنازعون فيما بينهم للوصول إلى الحكم ، ووجدت بينهم فتن وقلاقل وحروب داخلية عنيفة كانت توقع الفوضى بالبلاد ، وكانت الدولة العثمانية تعمل على بقاء هذه المنازعات بينهم ... بل إنها كانت تعمل على التفرقة بينهم وغرس بذور الأحقاد في صدورهم . حتى لا يستبدوا بالسلطة . فلم يكن من المعقول — والحال كذلك — أن تصلح حال الشعب المصري ، وحكامه المتصرفون في أمره ... منقسمون على أنفسهم ، لاهم لهم إلا جمع الأموال ... ولا غرض لهم ولا مأرب إلا الوصول إلى الحكم والسيطرة على مقاليد الأمور في البلاد .

كما أن المماليك كانوا كثيراً ما يعزلون الولاة . فلم تتح لهؤلاء الفرصة للاصلاح ... ولقد كان بعض أولئك الولاة كما أثبت المؤرخون ، من أهل الكفاية والإخلاص ، وذوي الرغبة في إصلاح ما اختل وفسد من شئون هذه البلاد ... فلا يكاد يشعر المماليك برغبته في الضرب على أيديهم ... وكف مظالمهم ... حتى يقرروا عزله ، وكانت الدولة العثمانية تساعدهم على ذلك وتسترضيهم حتى لا يمنعوا عنها الخراج .

لقد أخطأت الدولة العثمانية في سياستها مع المماليك ... كما أخطأ المماليك في إدارة حكم البلاد ، وسواء أكان الخطأ يقع على كاهل المماليك أم على كاهل العثمانيين ... فإن هذه السياسة الخرقاء التي اتبعها كلا الفريقين . كانت من أكبر الأسباب التي أدت إلى وقوع الفوضى والاضطراب في مصر ، وبالتالي إلى دخول الفرنسيين في سنة ١٧٩٨ م .

عبد الباسط محمد حسن
ليسانس آداب
(الإسكندرية)

(١) نفس المصدر .

الباكستان (١)

وعلاقتها بالعالم العربي والإسلامي

للدكتور حسين الهمداني

شاهد العالم خلال الأحقاب الطويلة البعيدة عدة حضارات ازدهرت فى كثير من أرجاء العالم منها الحضارة التى قامت حول البحر الأبيض المتوسط . وقد قسّم المؤرخون هذه الحضارات إلى قسمين : قسم يشمل بلاد الشرق من هذا البحر ، وقسم يشمل بلاد الغرب منه . والحضارة التى تعنينا اليوم هى حضارة هذا القسم الشرقى الذى يمتد من شمال أفريقيا شرقاً حتى يقف عند نهاية الباكستان . وقد ظلت حضارة الجناح الأيمن هذا تشع على العالم أجمع نوراً من العلم والمعرفة والثقافة ، كان يسرى بين خيوطه إشعاعات علم الأقدمين كاليونان والرومان .

وكانت هذه الحضارة متفقة مع الحضارة الغربية فى كثير من الأسس فقد كانت الحضارتان قائمتين على أساس ديانتين عظيمتين كما كانتا تأخذان من تلك الحضارات القديمة كثيراً من مقوماتها ؛ وهكذا اتحدت الحضارتان فى الأسس والدعائم .

وقد كانت الباكستان ، ولو أنها كانت جزءا من الهند ، على وثيق بالشرق الأوسط ، وكانت ، تأخذ من حضارة الجناح الأيمن الشرقى ، لأنها كانت تدين بدينه وتتعلق بآرائه وتأخذ من ثمرات مجهودات مفكريه الذين اقتبسوا كثيرا من عصارة ذهن اليونان والرومان والفرس ، وكانت شديدة الصلة بالكلدانيين الذين استوطنوا العراق قبل ٧ آلاف سنة ، كما اتصلت بالبابليين وكما وربطت بينها وبين دوله الفرس روابط تجارية ثقافية .

ولدخول الإسلام فى الهند قصة ... إذ قام العرب بعد موت النبى صلوات الله عليه بخمس وعشرين سنة بغزو إيران وسوريا وأرمينيا وقسم من وسط آسيا ومصر . وسار المسلمون فى فتوحاتهم نحو الشرق صوب حيوات وكابول وبلخ ، حتى بلغوا نهر الأندس والسند ؛ وهنا تمكنت العلائق بين العرب وأهل السند وهم الذين يكوّنون اليوم غرب الباكستان ، وبقيت متينة خصوصاً مع الحكام الهنود فى الجنوب مما نتج عنه توطن الشاطئ الغربى بواسطة كثير منهم ، حيث بنوا المساجد ... ...

ومع أن مسلمى الهند كانوا يعيشون مع غير المسلمين هناك عيشة قريبة متمازجة يفرضها الوضع الجغرافى إلا أنهم كانوا شديدى البعد عنهم فيما يتصل بعباداتهم وتقاليدهم وثقافتهم ورغباتهم . وعلى رغم هذا الوضع الذى كان يقرّب بينهم كان المسلمون يتجهون بكل نفوسهم إلى العرب ومسلمى الشرق الأوسط وكانوا يتخذون اللغة العربية لغة للعلم والدرس يؤلفون بها ويؤسسون لها المدارس . والمعاهد والجامعات فى جميع بلدان شبه القارة .

ولم تقتصر هذه الرابطة على تبادل التجارة أو بعض الأفكار الثقافية بل ا[illegible]ت الرابطة إلى ما هو أبعد من هذا ، امتدت إلى أن خضع المسلمون هناك لطاعة الخليفة ، كما دانوا له بالولاء . وفى فتح البلدان يقول البلاذرى : إن حكام السند العرب كانوا يلقون خطبة الجمعة متوجة باسم الخليفة ، كما ضربوا العملة باسمه : وظل الحال على هذا من هذه الفترة إلى أن تقوضت الخلافة الإسلامية بتركيا .

وظلت العلاقات قائمة بين المسلمين هناك وبين الشرق الأوسط إلى عصرنا الحديث ... ... ولم يكن المسلمون ليتوانوا لحظة فى خلال كل هذه السنين عن الشعور بنفس الشعور الذى يساور أهل الشرق فقد كانوا يفرحون لفرحه ، ويتألمون لألمه . وكانوا يعتقدون أن هذا الشرق ما هو إلا جسم واحد إذا اشتكى منه عضو تألم له بقية الأعضاء ، وإذا أصاب طرفا منه ضر أو شر فإنه سرعان ما يصيب كل البلاد قاصيها ودانيها .

ولم يكن مسلمو الهند فى جهادهم بمنأى عن هذا الشرق ، لأنهم كانوا على اتصال وثيق به ، يربطهم به رابطة الدين ورابطة الألم ورابطة الظلم الذى يحل به ، ورابطة القسوة التى يجابههم بها الأقوياء ، ورابطة الحذر مما يبيت المسلمين قاطبة من كيد ومن غدر ، فقاموا من ساعتهم ، فى الحدود التى حاولوا فيها أن يصلوا إلى أقصى ما يستطيعون رغم الاستعمار الأجنبى ، يريدون الوقوف إلى جانب إخوانهم المسلمين فى كثير من المعاطف وفى كثير من المحن ؛ فهم حزنوا لتفكك الخلافة ولانهيار الإمبراطورية العثمانية ، لأنها كانت تمثل فى نظرهم قلعة الإسلام . وقاموا يحتجون لدى انجلترا على المعاملة التعسفية التى عاملوا بها مصر عام ١٩٢٤ حينما قتل السردارلى ستاك باشا ، واحتجوا لديها كذلك ولدى عصبة

(١) الكلمة التى ألقيت يوم ١٤ أكتوبر بنادى خريجى الجامعة من غير المقدمة

تاريخ استخدام الدبابات
في جيش المسلمين
للأديب عطا الله ترزي باشي

يرجع تاريخ استخدام الدبابات فى الحروب إلى وقت نشوء المجلات الحربيــة . وقد وجد فى العراق كثير من التصاوير التى تكشف لنا عن وجود المجلات غير الحربية منـذ سنة (٢٠٠٠) قبل الميلاد ، أما الحربية منها فوجدت فى الصين سنة (١٤٥٠) ق. م. وظهر بنتيجة البحث والتدقيق أن استخدام الدبابات لأول مرة فى التاريخ كان فى إحدى الحروب الدائرة بين المصريين والميتانيين (الانسيكلوبيديا التركية «اينونو» ، جـ٣ ، ص ١٩٥ ، سنة ١٩٤٩) .

وفى الواقع كان المصريون القدماء أول من استخدموا الدبابات فى الحروب ، ومن بعدهم الآثوريون فاليونانيون القدماء ومن بعدهم العرب (تاريخ التمدن الإسلامى ، جرجى زيدان ، جا ، ص ١٦٠) .

وكان المسلمون يتخذون الدبابات لتسلق أسوار العدو ، وهى آلات من الخشب الصفيق ، وقد تكون طباقاً ، وتغلف بالجلود المنقوعة فى الخل لدفع النار . وتركب على عجل مستدير يدفعها الرجال ويصعد الجند فى أعلاها ويستعلون على السور . وقد يستخدمون الدبابات لهدم الأســوار فيسيرونها ويحتمون بجدرانها ويجعلون رأسها محدداً يصدمون بها الأسوار حتى تهدم (المرجع السابق) .

وقد استخــدم المسلمون الدبابات لأول مرة فى السنة الثامنة من الهجرة أثناء غزوة الطائف (أحمد رفيق ، الغزوات النبوية ، حاشية ص ٤٥) .

وكذلك جاء ذكر هذه الآلة فى كتاب آخر للأ[illegible]ذ نفسه (باللغة التركية) وهو كتاب (تاريخ الانتصارات العثمانية) نقلا

الأمم عندما امتد الانتداب البريطانى على العراق لخمس وعشرين سنة تالية ، واشتركوا فى مؤتمر الخلافة سنة ١٩٢٥ واحتجوا لدى الفرنسيين يوم أن ضربوا دمشق بالمدافع ... ... وكانوا ولا يزالون يتألمون لما يصيب إخوانهم عرب مراكش وتونس والجزائر من ذل يفرضه عليهم المستعمر الغاشم .

وأنى لأؤكد أن الباكستان فى قومتها دولة إسلامية لم تقم لخدمة بنيها فقط ، وإنما قامت لخدمة الإسلام أنى وجد ، فكثيراً ما كانت تناهض انجلترا لإصدارها وعد بلفور بصدد فلسطين . وكثيراً ما حاولت انقاذ هذه البلاد من مخالب الصهيونيين لأنها تؤمن بأنها بلاد تهم المسلمين أجمعين . ولا أظننى أخالف الواقع إن قلت إن زعيمنا الخالد الذكر محمد على جناح كان ينــذر العالم الإســلامى منــذ قديم الزمان باحتمال قيام الخطر الصهيونى ، وها قد تحققت مخاوفه ، وأصبحنا نرى نذر الخطــر تبغى الانقضاض علينا . الحق يحضنا على ذلك فقد ورد فى القرآن الشريف « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » وليس هناك إلا تقوية الجيوش وحشد القوات ، لأن هذه هى اللغة الوحيدة التى يفهمها العالم اليوم وليس هناك إلا إنشاء المصانع وعمل الذخائر ، فنحن اليوم فى عالم خــلا من وازع الضمير ، وضاع فيه معنى الحق ومعنى الشرف واصبحت الـكلمة للمدافع والهيبة للقوى ؛ فماذا عنمنا والحالة هذه أن نعمل لهــذه القوة وما الذى يحول دون بلوغنا هذه الغاية ؟

لقد آمنت الباكستان بكل هــذا وراحت تقوى جيوشها وأسطولها ، وليس معنى هــذا أنها تطلب سيادة أو تريد إيقاع العدوان على أحد ، بل هى تريد أن تبقى محترمة مرهوبة الجانب لما قد يهدد[illegible] ، وتضرب من يهاجمها ... ...

توخيت فى هذه المجالة أن أبين مدى ارتباط الباكستان بالشرق ، وكيف نريد ونأمل أن يكون عليه هذا الأخير من قوة ومنعة ، لأننا نريد للاسلام رفعة الشأن وقوة الجانب ، وليس هناك للاســلام موطن ، وليس له حدود ... ...

واجب أن انوه بأن كلامى هذا لا يشتم منه رائحة العنصرية ولا المذهبية ، وأريد أن أزيد بأنى لست متعصبا ضد أية ديانة أو مذهب ، وإنما أنا متعصب لدينى ، ومتعصب لبلادى أريد لها ولمن يشترك معها أن يترسموا الطريق نحو العزة والسؤدد وأن يصلوا إلى المـكانة العليا التى يهيؤها لهم إيمانهم ودينهم وتسامحهم ... ... و « ويرفع الله الذين آمنوا والذين أوتوا العلم درجات » .

حسين الهمدانى

عن كتاب (كوكب السعود فى كوكبة الجنود لابن إسحاق. ص ٧٧). إنه فى غزوة الطائف استخدم المسلمون الدبابات المصنوعة من جلود الأبقار التى لا تتأثر كثيراً بمقذوفات العدو، وتقدموا بها نحو السور لإحراق الأمكنة المجاورة له. غير أن أفراد قبيلة ثقيف المحصورين فى البلدة بدأوا يرمونها بقطع من الحديد المحماة بالنار ... (حاشية ص ٢٥٠، ٢٥١ من المرجع السابق).

ويبحث الأستاذ محمد حسين هيكل فى كتابه «حياة محمد» عن استخدام المسلمين الدبابات فى غزوة الطائف بشىء من التفصيل، فيقول:

إنه لم يكن من اليسير أن يقتحم المسلمون هذه الحصون المنيعة إلا أن يلجؤا إلى وسائل غير التى ألفوا حتى اليوم حين حاصروا قريظه وخيبر ... فما عسى أن تكون هذه الوسائل الجديدة التى يهاجمونها بها؟ ...

وكان لبنى دوس (إحدى القبائل المقيمة بأسفل مكة) علم بالرماية بالمنجنيق ومهاجمة الحصون فى حماية الدبابات. وكان أحد رؤسائها الطفيل قد صحب محمداً منذ غزا خيبر؛ وكان معه عند حصار الطائف؛ فأوفده النبى إلى قومه يستنصرهم؛ فجاء بطائفة منهم ومعهم أدواتهم؛ فبلغوا الطائف بعد أربعة أيام من حصار المسلمين إياها. ورمى المسلمون الطائف بالمنجنيق وبعثوا إليها بالدبابات دخل تحتها نفر منهم ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه، ولكن رجال الطائف كانوا من المهارة بحيث أكرهوا هؤلاء على أن يلوذوا بالفرار. فقد أحموا قطعاً من الحديد بالنار، حتى إذا انصهرت ألقوها على الدبابات فحرقتها، ففر جنود المسلمين من تحتها خيفة أن يحترقوا. (حسين هيكل، حياة محمد، ص ٤٢٠، ٤٢١).

ويظهر أن الدبابات فى السابق وإن كانت لها قيمة كبرى فى الحروب لإخافة العدو وإثارة ضجيجهم، فإنها لم تنل حظاً فى إحراز النصر حيث كانت عرضة للاحتراق، فإن موادها المركبة من الجلود والأخشاب كانت سريعة التأثر بالنار. وقد حاول المهندسون المسلمون عبثاً إيجاد بعض الوسائل لتقيها من الأخطار المعهودة. فاستعملوا الجلود المبلولة بالماء والمنسقة بالخل ولكنهم لم يفلحوا.

ويحدثنا الأستاذ أحمد بدوى فى مقال له تحت عنوان «القوة الحربية فى مصر والشام» كتبه فى مجلة الرسالة عدد ٨٠٩ وتاريخ ١٤ – مارت – ٩٤٩ نقلا عن (النوادر لابن شداد، ص١٠٣) عن عظمة الدبابات التى استخدمها العدو فى حصار عكا، بما يلى:

«صنع العدو ثلاثة أبراج من خشب وحديد وألبسها الجلود المسقاة بالخل بحيث لا تنفذ فيها النيران؛ وكانت هذه الأبراج كأنها الجبال عالية على سور البلد، ومركبة على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر، ويتسع سطحها لأن ينصب عليه منجنيق، وقد ملأ ذلك نفوس المسلمين خوفاً ورعباً، ويئس المحاصرون فى المدينة، ورأوها وقد تم عملها ولم يبق إلا جرّها قرب السور. وأعمل صلاح الدين فكره فى إحراقها وعدم على ذلك بالأموال الطائلة والعطايا الجزيلة، ولكن ضاقت حيلهم عن ذلك. وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقى ذكر بين يديه إن له صناعة فى أحراقها وأنه إن مكن من الدخول إلى عكا وحصلت الأدوية التى يعرفها أحرقها، فحصل له جميع ما طلبه، ودخل إلى عكا وطبخ الأدوية مع النقط فى قدور نحاس حتى صار الجميع كأنه جمرة نار، ثم ضرب واحداً بقدر فلم يكن إلا أن وقعت فيه، فاشتعل من ساعته ووقته، وصار كالجبل العظيم من النار طالعة ذؤابته نحو السماء واستغاث المسلمون بالتهليل، وعلاهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب. وبينا الناس ينظرون ويتعجبون إذ رمى البرج الثانى بالقدر الثانية فما كان إلا وصلت إليه واشتعل كالذى قبله فاشتد ضجيج الفئتين، وما كان إلا ساعة حتى ضرب الثالث فالتهب وغشى الناس من الفرح والسرور ما حرك ذوى الأحلام».

وحسب ما نعلم كانت هذه المواد هى زيت النفط والكبريت والجير والقار فتتكون من خلطها النار اليونانية. وقد أشار إلى استعمال المسلمين هذه النار فى الحروب الصليبية الأستاذ كوستاف لوبون فى كتابه (المدنية العربية، ص ٥١٤، ٥١٥).

ويروى الأستاذ أحمد بدوى فى المقال السابق الذكر نقلا عن (خطط المقريزى، ج ١ ص ٣٤٧) أن الفرنج هاجموا دمياط سنة ٦١٥ فى آخر أيام العادل وعملوا آلات ومرمات وأبراجاً متحركة

مطبعة الرسالة

٣ ـ من شجرة الدر

لحضرة صاحب السعادة عزيز أباظة باشا

عز الدين أيبك — شجرة الدر

أيبك : قد كنتِ رائعة الآراء بارعة الـ
تدبير ملهمةً للحزم والرشدِ

شجرة الدر : بالغتَ أيبكُ

أيبك : بل قصرتُ مالكتي

شجرة الدر : فتلك عين الرضا يا صاح فاقتصد

أيبك : أسرفتُ يا ملكةَ الوادي ؟! أما رأمت
يداك مصر فعاشت عيشة الرغد
دفعت عنها عِداها واعتليت بها
مقادم المجد في أيامك الجُدُدِ
وقدتِها للمعالي واحتشدت لها
فأصبحت غرضاً للحقد والحسد
يا ربة التاج

شجرة الدر : هذا التاج ضقت به
ذرعا

أيبك : وكيف ؟

شجرة الدر : أما أبصرتَ ما يقع ؟
وزادني فيه كرهاً أن نُسبت له
وكنت باسمي تدعوني فأستمع

أيبك : جلالة الملك أقصتْ عنك لي أملاً
(في مرارة) ما زال يهفو له قلبي ويندفع
ولمة التاج لم تطفئ رونقها
سوى رجائي وكان الدهر يلتمع
يا عصمة الدين[1]

الملكة : عز الدين قلت فلم
تنصف وأنت على نجواى مطلع
أنت الذي مسَّ قلبي فاستجاب له
وعاد يرتاح للدنيا ويتسع
رحمته وهو ثاو في أضالعه
أنحى عليه الضنى والوجد والجزع

أيبك : لما وليت أمور الملك قلتُ مضى
عهد الهوى وانقضت في إثره المُتع
وقلت للنفس : تلك الشمس كيف لها
تَرقى وأنت المعنَّى العاجز الضرِعُ
طويت روحي على يأس وهبت بها :
قرّي بيأسك ، لا يجنح بك الطمع

شجرة الدر : فدتك نفسيَ عزَّ الدين . أي أسى
يهتاج في عتبك الباكي وينـدلع
لا شيء كالحبِّ ... لا ملكٌ ، ولا ولدٌ
ولا شباب ، ولا الدنيا بما تسع
والحب إن كَرُمت أعراقُه وصفَت
يسمو على قِيَم الدنيا وترتفعُ
ما أضيع العمر إن لم تحترق كبدٌ
وتحتدم لوعةٌ في القلب تصطرع

أيبك : يا عصمة الدين هذي ليلة كرُمت
كأنها من ليالي الخلد تنتزع
بمثلني حين لم أجرؤ على أمل
وحين كل رجاء فيك منقطع
وحين نفسي — رعاك الله — تالفة
وحين قلبي — وقاك الله — منصدع
أهواك ... أهواك ألوانا فأيسرها
مُدى تَواتر في صدري فتقتطع
ما زلت والسن تعلو بي أذوب جوى
إذا همست واستخفى وأمتقع

شجرة الدر : (وهي تسترد جأشها)
لا بل نحب كاقيال الرجال إذا
هاموا فلا الضعف يعروهم ولا الجزع

(١) أحد أسماء شجرة الدر .

ما كنت والتاج يُزهى بي سوى امرأة
تأوى إلى الرجل الحامى فتمتنع

أبيك : نفسى فداؤك قد مزقتها قطعاً
وسمتها الألم القدسى والسقما

شجرة الدر : وكيف ؟

أبيك : من غيرة كالنار حاطمة
والموج مصطخباً ، والسيل محتدماً
تظل تعصف بى عصفاً

شجرة الدر : سلمت ولِمْ
هذى الشكاية ؟

أبيك : غيرى فيك من سلما
كم بت غيران ممن قد أنست به
ومن همست له فارتاح وابتسما
ما إن تحدثت فى لين إلى رجل
إلا أثرت بقلبى فتنة عمما
وما هششت لبعض الناس عن عرض
إلا نزا الهمّ فى جنبىّ واضطرما
الغيرة الحبّ ما شبت ... فإن خمدت
فقل مضى الحبّ فى أذيالها قدما

شجرة الدر : ممن تغار وقلبى أنت مالكه
ربا هواك وأرمى فيه فاحتكما

أبيك : إنى فريس جوى ما إن خلوت له
إلا انتهى لشغاف القلب فاصطلما
(ثائراً) إنى أغار من الماضى

شجرة الدر : أأعقل ما
تلقى !

أبيك : أغار من الماضى الذى انحسما
أغار من كلّ من قد ظنّ أن مُلئت
يداه منك فرد النفس واعتصما
أغار من كلّ من أفضى إليك ومن
أثنى عليك ... وإن قال الذى علما
أغار من كل ذى شأن بذلت له
عطفاً فقبّل منه الراح والقدما
وددت لو كنت لى لم تعرفى أحداً
ولا بنى بك زوج ... هان أو عظما
عيناك مشرع ما ألقاه من قلق
الله بالسحر والإغراء علهما
فما تحركتا إلا وأيقظتا
فى الغافلين الهوى والشوق والنهما
يا أطهر الناس عرضاً ما نجوت من الـ
ـباغى الذى يثلم الأعراض والحرما
أمقهم أنك استعذبت قربهم
وإن رضيت على علاتها التُّهما

عزيز أباظة

تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوي

من صدى الدموع التي شابت :

لله هذا القلم الذي تقلبه بين أناملك فيسطر كلمات هي في أغوار القلب أنغام وألحان ... فيها الشجن العارم والحزن المقيم ، وفيها الحنان الشفيف والأخوة المتسامية ، وفيها الإنسانية تحلق في جواء مترعة من الأفكار وعالم حالم من الصور ؛ هنالك حيث يلتقي الناس إخوة ... وتتناجى الأرواح في همس .

كم حلقت بي كلماتك النابضة التي تتنفس على صفحات الرسالة والتي قرأتها اليوم ... تلك القصة الرائعة التي سجلها قلمك الحي والتي أعجب أنك إنما صغتها من كلمات وكلمات فقط . نعرفها جميعاً ونقرؤها كثيراً ، ولكنها تتجمع هنا وتتآلف لتكون لحناً وتصوغ سمفونية خالدة !

قصة الدموع التي شابت ؟! كم حركت الشجن في صدري ، وكم أثارت كوامن الحزن في نفسي ... نفسي التي عرفت الحزن وألفته وهامت به ، الحزن الذي يصقل النفس ، ويبلور العواطف ، ويجنح بالفكر إلى العلو ..

هذا الصديق الذي كان لحناً توارى بين فجاج الصمت ، وكان حلماً تبدد على صيحة مفزعة لملك الموت ... هذا الإنسان الذي عاش في حساب الزمن سنوات قلائل ، وعاش دهراً في حساب التجارب والمحن .. هذا الإنسان الصديق ، الذي لم أره من قبل أريد ياسيدي الكاتب أن أعرفه .

أكتب لنا قصته فهو أولى الناس بأن تكتب عنه . لا تهب ياسيدي نبش القبور ، ولا تتردد في تقليب الذكريات ومبعثها من مثواها الأخير ، الغائر في أعماق الصمت . . فقد مات الإنسان ولا أحد يعرفه ، عاش مغموراً ومات كذلك .. ذهبت الأنات لم تصل إلى أذن ، وتبددت الزفرات لم يشعر بها إنسان إلا أنت . . لقد ثوى الجسد في القبر وأصبحت الذكريات ملكا للإنسانية الهائمة على مسرح الأرض . ونحن بغير تجاربنا ندور حول أنفسنا . نبدأ ثم نعيد ، مغمضي الأعين ، مغلق السمع ، مطموسي الحس .. فاكتب عنه ياسيدي على ضوء تلك الرسائل التي بعث بها إليك ، فإنك إذ تفعل إنما تضيف إلى تجارب الإنسانية تجارب . وإلى روضة الفن باقة غالية !

إفعل ذلك بحق الفن . . وفي الانتظار ، تقبل تحيات

المخلص المعجب : سعيد كامل

كلية الآداب — قسم الفلسفة

هذه رسالة من بضع رسائل تلقيتها حول قصة الدموع التي شابت . إنها تعبر عن رجع الصدى العميق الذي هز قلوبا ومشاعر وتنوب عن بقية الرسائل في إظهار المحور النبيل الذي تدور حوله رغبة ورجاء .

ياصديقي الذي كتبت إلي .. لقد كنت أود أن أقص عليك وعلى الناس قصة ذلك الإنسان البائس ، ولكن هناك أحياء سيفجر مداد القلم دماء جراحهم إذا ما كتبت ! . إن وراء السطور مأساة نسج خيوطها القدر ، وقام بإخراجها الزمن ، واشترك في تمثيلها بعض الناس . . فيهم الشيطان الغادر ؛ وفيهم الملاك الطاهر ، وفيهم الإنسان الشهيد ! أما المسرح فقد كان هناك . . في الإسكندرية ، وأما النظارة فقد كانوا هنا ... في القاهرة ، كانوا فرداً واحداً يستمع إلى القصة تنقل إليه على أمواج الأثير في كلمات ، ولكم تناول هذا الفرد الواحد قلمه ليجفف الدموع التي فاضت ... ولكنها شابت ! !

وهاهو ذا يحاول اليوم أن يكتب القصة ، ولكنه يقف حائراً بين أمرين : رغبة القراء ... ولوعة الأحياء ! ترى هل يرضى الفن فيستجيب لدعائه ، أم يخضع لصوت الضمير فيقبض قلمه إلى حين ... إلى أن تهدأ الرياح ، وتلتئم الجراح ، وتتكسر أمواج المحنة على شواطئ النسيان ! ؟

إنني في انتظار الرأي من كل صاحب رأي ... وعلى الذين ينشدون عرض المأساة على صفحات الرسالة أن يقدروا هذه الحقيقة وهي أن هناك أموراً على جانب من الخطورة ستذكر ، ولا آمن إذا ما اطلع عليها أصحابها أن يتهدم بيت وتتحطم أسرة ! !

أدبنا بين المحلية والعالمية :

أسمع صيحة تتردد على الشفاه أحياناً ، ثم تنتقل من الشفاه إلى الورق أحياناً أخرى ؛ أعني أنها تنتقل من ميدان الحديث

المسموع إلى ميدان الرأى المكتوب ... وجوهر الصيحة أو خلاصتها هو أن أدبنا لا يمثلنا ، وهدفها أو غايتها هو أننا نريد أدبا مصريا ؛ أدبا ينبئ عن الشخصية المصرية ، ويومئ إلى الطابع المصرى ، ويقبس من بيئتنا صوره وألفاظه ومعانيه !

صيحة يطلقها بعض المتعصبين عن جهل ، ورأى يجهر به بعض المتعالمين بغير علم ، و « وطنية أدبيـة » ينادى بها بعض « القوميين » على غير هدى وبصيرة ... يريدون أدبا مصريا ، ماذا يقصدون بالأدب المصرى ؟ هل يقصدون أن يهمل الكتاب والشعراء والقصاصون كل ما يتصل بالتجربة الشعورية الخاصة ، وبالنفس الإنسانية العامة ، وبالحياة فى كل أفق من آفاقها الرحيبة ، ليفرغوا لكل مشكلة يومية تعترض طريق الكادحين من أبناء الشعب ، وكل ظاهرة اجتماعية تهم المسئولين عن مصالح الناس ، وكل مشهد تقع عليه العين ويلتقطه الخاطر فى نطاق المجتمع الذى يعيشون فيه ؟! أغلب الظن أنهم يرمون من وراء صيحتهم إلى هذا كله ؛ وإلى ما هو أبعد من هذا كله ؛ فإذا رحل الشاعر المصرى مثلا إلى ربوع سويسرا وجادت مخيلته برائعة شعرية حول بحيرة ليمان قالت له ألف صيحة وصيحة : هـذا أدب سويسرى هذه بضاعة أجنبيـة ، نريد أدبا مصريا نريد بضاعة وطنية ... عندك يا أخى بحيرة البرلس وبحيرة أدكو وبحيرة المنزلة ، ألا ترى أننا فى غنى عن أن نستورد من الخارج ؟! وإذا تنقل القصاص المصرى مثلا بين أحياء باريس ثم عكست ريشته بعض صور الحياة فى مونبارناس قالت له ألف صيحة وصيحة : هذا أدب فرنسى هذه آفاق غربية ، نريد أدبا مصريا نريد آفاقا شرقية ... عندك يا أخى حى السيدة والحسين وخان الخليلى ، ألا ترى أننا فى غنى عن أن نستورد من الخارج ؟! وإذا طاف الكاتب المصرى مثلا بأى بلد أوربى فاستمع إلى أدبائه ونقل ما سمع إلى مواطنيه ، أو قضى ساعات بين كتب الغرب ثم تحدث عن رحلته الفكرية إلى قارئيه قالت له ألف صيحة وصيحة : هـذا أدب البرنطيين هذه أفكار أعجمية ، نريد أدب الطربشيين نريد أفكاراً عربيـة .. يا أخى عندنا فلان وفلان وإنهم لمن سلالة الجاحظ وأبى حيان وابن المقفع وابن العميد فمالنا ولجان سارتر وجورج ديهامل وبول كلودل وأندريه جيـد ؟ ألا ترى أننا فى غنى عن أن نستورد من الخارج ؟!

هذا هو جوهر الصيحة أو خلاصتها أو هذا هو الهدف الذى تلوذ به وتسعى إليه ، ولك أن ترد الجوهر والهدف معا إلى تلك الدوافع التى حدثتك عنها من قبل ، ولك أن ترد تلك الدوافع إلى مصدر واحد هو مركب النقص ... يريدون أن يحصروا الأدب المصرى فى بيئتهم لأنهم لا يعرفون غير هذه البيئة ، ويريدون أن يفرضوا على الأدب المصرى ألا يتحدث بغير لغتهم لأنهم لا يفهمون غير هذه اللغة ، ويريدون أن يقصوا أجنحة الأدب المصرى إذا حلق فى غير أفقهم لأنهم لا يطيقون غير هذا الأفق ، ويريدون أن يكتموا أنفاس الأدب المصرى إذا عب من هواء الحرية فى غير جوهم لأنهم لا يستطيبون غير هذا الجو بما فيه من هواء ... ولا بأس من الجمود والركود ، ولا بأس من الخمول والرجعية ، ولا بأس من البقاء فى المعاقل دون التطلع إلى ما وراء الأسوار . لا بأس من هذا كله ما دمنا نريد أدبا مصريا ، أدبا يمثلنا ، أدبا لا يصح أبداً أن يتخطى حدود الزمان والمكان ! !

أدب محلى هذا الذى يريدون ، لأنهم لا يدركون أثر العالمية فى الأدب ولا قيمتها فى حساب الخلود ... كلا يا أصحاب الصيحة السافرة والنبرة الصاخبة ، إننا نريد أدبا إنسانيا لا مصريا ، أدبا يقرؤه الذين هنا والذين هناك ، أدبا يفتش عن مصادر الإلهام ومنابع الوحى فى كل قطر من الأقطار وكل بقعة من البقاع ، أدبا يخاطب الوجدان فى كل نفس بشرية ويستنطق الحياة أينما طافت عدسته بمواكب الأحياء ، أدبا يطالعه القارئ من كل جنس ولون فيحس أنه قد كتب له ، أدبا يصور الخلجة كما تضطرب فى أعماق الصدر ، والخفقة كما تهدر من أغوار القلب ، والنزعة كما تنحدر من أوكار النفس ، والنزوة كما تنزى بين قيود الطبع ... وهذه هى المرآة الصافية المصقولة التى تلتقى على صفحتها كل الوجوه ، وتأتلف كل المشاعر ، وتتعانق كل الأرواح . هنا وفى كل أرض يرتفع فوق ثراها صوت الفن ، وترفرف فى سمائها راية الفكر ، وتتجاوب فى أرجائها صيحات الباحثين عن أنفسهم فى زحمة هذا الوجود !!

إنك لن تجد فى فرنسا من يقول نريد أدبا فرنسيا ، ولن تجد فى روسيا من يقول نريد أدبا روسيا ، ولن تجد فى ألمانيا من يقول نريد أدبا ألمانيا ، ولن تجد فى إنجلترا من يقول نريد أدبا

انجلترا ... ذلك لأن الأدباء في كل بلد من تلك البلاد قد فهموا رسالة الفن كما يجب أن تفهم ، على أنها مادة فكرية تحطم حواجز المحلية المقيدة لتنفذ إلى مسالك العالمية الطليقة ، وبمثل هذا الفن الإنساني تمكنت هذه الآداب جميعاً من أن تحتل مكانها في كل وطن ، وكل بيئة ، وكل لغة ... وهذا هو الطريق !

جان بول سارتر والشعر :

للفيلسوف الفرنسي الكبير جان بول سارتر مجلة أدبية فلسفية هي « العصور الحديثة أو Les Temps Modernes » ... ولا أريد أن أحدثك هنا عما ينشر فيها من بحوث ، ولا عن مكانة صاحبها من الفكر الفرنسي المعاصر ، وإن كنت قد حدثتك عن مكانة سارتر في عدد مضى من الرسالة . وإنما أريد أن أنقل إليك قصة طريفة تتعلق بالفيلسوف الفرنسي الكبير وبمجلته الرفيعة ؛ وهي أن شاعراً من الشعراء الفرنسيين قد بعث إليه بقصيدة من « روائع شعره » لتزدان بها صفحات « العصور الحديثة » ... ومضى شهر وشهران وثلاثة والشاعر ينتظر ، ينتظر نشر القصيدة التي ألقى بها سارتر إلى سلة المهملات !

وحين يئس الشاعر من عطف الفيلسوف ، أطلق لغضبه العنان فكتب مقالا ثائراً في « الفيجارو » يتهم فيه سارتر بأنه رجل لا يحترم الشعر لأنه لا يفهمه ، والدليل على ذلك أنه لم يستطع أن يتذوق قصيدته « الفريدة » التي رحبت بنشرها الفيجارو في صفحتها الأدبية !.. وتناول الفيلسوف قلمه ليبعث إلى الصحيفة الفرنسية بهذه الكلمات : « عزيزي رئيس تحرير (الفيجارو) .. أؤكد لك أنني أفهم الشعر ، وأؤكد لك أنني أحترمه أكثر مما أحترم الفلسفة ، والدليل على مدى احترامي للشعر هو أنني أخرجت كتاباً عن « بودلير » الشاعر في حين أنني لم أكتب شيئاً عن « ديكارت » الفيلسوف ... أما الدليل الأخير فهو أنني قد ألقيت بقصيدة الشاعر الذي هاجمني إلى سلة المهملات » ! !

قصة طريفة أهديها إلى الشاعر المصري « الكبير » الذي بعث إليّ برسالة يتهمني فيها بأنني لا أحترم شعره لأنني لا أفهم الشعر ، وكان قد أهدى إليّ إحدى قصائده لأقدمها إلى القراء على أنها من فرائد « الأداء النفسي » ، ذلك الأداء الذي سبق أن بحثت مشكلته على صفحات «الرسالة» ... وأكتفي بهذا وأصفح عما جاء برسالته من عبارات مهذبة ، وعليه أن يشكرني في رسالة أخرى لأنني استشرت الذوق فلم أذكر إسمه ، وإذا لم يعمل فسأعمد إلى التصريح بعد التلميح !

بعض الرسائل من حقيبة البريد :

هذه رسالة من الشاعر العراقي الفاضل الأستاذ عبد القادر رشيد الناصري أقول رداً عليها بعد شكره على كريم تقديره ، هل تود أن أجيبك عما سألتني عنه هنا أم تود أن يكون الجواب في رسالة خاصة ؟ إنني في انتظار رأيك . وهذه رسالة أخرى من العراق أقول لمرسلها الأديب الفاضل محمد سعيد « مسيب » ، إنني أرحب بعضويتك في محكمة الأمانة العلمية وأشكر لك حسن ظنك بصاحب « التعقيبات » ، وأعتذر من نشر حكمك القاسي على الدكتور شكري لأننا لم نسمع بعد كلمته في الموضوع ، أما الرسالة الثالثة فهي من الأستاذ الفاضل فؤاد الونداوي « بغداد » وبها سؤال عن « القيود في الفن » سأعرض له بالتعقيب في العدد المقبل من « الرسالة » . ومن العراق أيضاً هذه الرسالة الرابعة وهي من الأديب الفاضل عبد الله نيازي « بغداد » ياصديقي لك خالص امتناني لتفضلك بإهدائي « نهاية حب » ، قصتك الطويلة التي تلقيتها منذ أيام ، وانتقل إلى الرسالة الخامسة وهي من الأديب الفاضل عبد الله النافع « عطبرة — سودان » وفيها يرمي زميله الأديب السوداني سيد أحمد قناوي بأنه يبعث إلى « الرسالة » بأقاصيص منسوبة إلى الإنجليزية حيناً وإلى الفرنسية حيناً آخر مع أنه لا يجيد هذه ولا تلك ، إن ردي على هذا الاتهام هو أن يدفع الأديب المتهم عن نفسه ما رمي به ، وذلك بأن يذكر في أقاصيصه المقبلة أسماء من ينقل عنهم ويترجم لهم ! أما الرسالة السادسة فمن أديب فاضل من «الاسكندرية» رمز لنفسه بهذين الحرفين (م . خ) وبها سؤال عن بعض ما جاء بكتاب «الحب الضائع» للدكتور طه حسين ، ياصديقي المجهول لك خالص شكري على جميل رأيك في صاحب هذا القلم ، وإلى العدد المقبل حيث أتناول بالنقد تلك الفقرات التي نقلتها إليّ ... ويضيق النطاق اليوم عن بقية الرسائل في حقيبة البريد .

أنور المعداوي

الأدب والفن في أسبوع

للأستاذ عباس خضر

تكريم الدكتور طه حسين :

أقام اتحاد التعليم الحر يوم الخميس الماضى ، حفلة تكريم للدكتور طه حسين بك فى دار الاتحاد النسائى لمناسبة عودته من أوربا . وقد بدأت الحفلة بكتاب من معالى الأستاذ محمد العشماوى باشا وزير المعارف ألقاه الأستاذ محمد سعيد العريان ، وقد تضمن هذا الكتاب الكريم تقدير معالى الوزير للدكتور طه ، إذ قال فيه بعد التعبير عن الأسف لعدم المشاركة فى الاحتفال : إنه كان يود الحضور للتنويه بفضل أديب العربية الأول والاعتراف بما أسداه للأدب والفن ، وما أداه لقضية التعليم ، وما أفادت الأمة العربية من آثار سفارته العلمية الموفقة فى بلاد العلم والحضارة ، بما نشر فى المجامع العلمية من مباحث ، وما أذاع من محاضرات ، وما ترجم له من آثار ، وما أثر عنه من أحاديث .

وقد أجمل معالى وزير المعارف بتلك الكلمات ، الأسباب الداعية إلى تكريم الدكتور طه بك . وقد دعوت الأدباء فى كلمة سابقة إلى الاحتفاء بعميد الأدباء بعد أن بسطت القول فى دواعى هذا الاحتفال ، والواقع أن الرجل لا يوفى حقه أى تكريم ، لأنه لا يعطى نفسه قدر ما يعطى هذه البلاد ، فهو فى الداخل محاميها المدافع عن حق أبنائها فى التعليم ، وهو فى الخارج سفير بلا مرتب وداعية ينفق من ماله ، على حين نرى عشرات المندوبين توفدهم الدولة إلى المؤتمرات العالمية ، وتكلف خزانتها نفقاتهم ، ثم لا نحس أثراً لهذه الرحلات والنزهات فى غير الصحة الجيدة التى يتمتع بها العضو الكريم ...

حقا إن الرجل لا يفى بحقه أى تكريم ، ولكنى لا إخال حفلا يقيمه الأدباء إلا نافعا من حيث ما يتوقع أن يقدم فيه من دراسات وألوان رائقة حية من الأدب والفن . وقد رأينا الشاعر المتدفقة وفاء فى حفلة رجال التعليم الحر ، رأيناها فى الجهد على قدر المستطاع ، وهو جهد يدل على الصدق فى النية أكثر مما يدل على شىء آخر .

ولا أستطيع أن أغفل الحديث عن القصيدة الممتعة التى ألقاها الشاعر الاسكندرى الأستاذ محمد فضل اسماعيل ، فقد خرج فيها عن قوالب المدح المعادة إلى حديث الأديب إلى الأديب ، والتعبير الظريف عن الخواطر السرية .

واختتم الحفل بكلمة فياضة من المحتفى به ، دارت حول حق العلم فى رعاية الدولة ، وحق الأمة فى تعلم أبنائها بالمجان فى جميع مراحل التعليم ؛ وقد دعا إلى «تأميم التعليم» بأن تدير الدولة كل معاهده ، وتيسيره لكل راغب ، وتأتى بالمعلمين من كل قادر على أن يعلم شيئا ؛ فلا تقتصر على خريجى الكليات ومعاهد التربية وحاملى الشهادات ، وقد سخر من « البيداجوجيا » ذاهبا إلى أنه لا ينبغى لها أن تقف فى سبيل نشر التعليم ، وأنه لا ينبغى أن ننتظر حتى نتمكن من بناء المدارس الفخمة وتأثيثها بفاخر الأثاث ، بل يجب أن نتعلم فى أى مكان وعلى أية حال ، حتى يتاح لنا أن نأخذ بأسباب الكمال ، وضرب أمثالا لذلك منها أن المصريين فى القرى لا يستطيعون أن يمسكوا عن شرب الماء حتى يصفى لهم .

ذلك ، وقد لوحظ أن خطباء الحفل وشعراءه أجمعوا على إبراز شىء كان يجب — إن لم يكن منه بد — أن يكون « مضمراً » فلم تخل خطبة أو قصيدة من الآمال والمطالب ، حتى ليمكن أن يقال إن نصيب أصحاب الحفلة من أنفسهم كان أكثر من نصيب المحتفل بتكريمه . ويمكن أيضا أن يقال إن تكريم المعلمين لآمالهم كان أكثر من تكريمهم للرجل الذى احتشدوا لتكريمه ... وقد جعل الخطباء والشعراء يحاذون هذا المنى ، حتى جاء الخطيب الأخير ، فرقم المطالب بأول وثان وثالث ... فهذا «الجدول» المرهق للمعلم المسن فى المدارس الحرة ، وغيره مما لا أطيل بذكره . ولست أدرى كيف غاب عن المعلمين أن الدكتور طه حسين بك ليس الآن فى منصب بحيث يقال له ذلك ، والقوم جديرون بالإنصاف والتقدير ، والرجل أهل لصنع المكرمات ، ولكن لكل شىء وقته ولكل مقام مقال .

وقد كثر الخطباء والشعراء ، وأطالوا ، حتى كاد ينقلب التكريم إلى ضده . ويبدو مع ذلك أنه كان هناك آخرون يبغون القول ، غير من قالوا ، وقد أفلت شاعر من الزمام ووقف يلقى

قصيدته دون أن يُقدِّم غيرعابئ بغيظ المنظمين .. وكلما قوطع قال : لم يبق إلا بيتان !

وقد شاهدت بعض «المضطهدين» فى وزارة المعارف ولسان حالهم يبغى اللياذ .. كما رأيت بعض كبار الموظفين فى الوزارة يحيطون بالدكتور طه حسين ، وقد سألت نفسى : هل كان هؤلاء يُلحون بهذا المقام فى غير هذا الظرف ؟ ما أحسب الدكتور طه إلا يتعب كثيراً ، كان الله له .

كرامة الأدباء :

كتب « أديب ناشىء » فى جريدة الزمان يوم الخميس الماضى يقول إنه حضر مجلساً فى ندوة الأستاذ كامل كيلانى أتى فيه ذكر الأستاذ العقاد من حيث ترفعه وكبرياؤه ، فقال الأستاذ الكيلانى : إن احتفاظ العقاد بكرامته جعل كثيراً من (الباشوات) يقدرون الأدباء حق قدرهم ، وهو فى احتفاظه بكرامته كما يقول على بن الجهم عن العلم :

أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة
إذن فاتباع الجهل قدكان أحزما

والأديب الناشىء يحكى عن الأستاذ كامل كيلانى نسبة البيت إلى على بن الجهم ، وإنما هو لعلى ابن عبد العزيز الجرجانى صاحب الوساطة بين المتنبى وخصومه ، وقبل هذا البيت قوله :

ولم أقض حق العلم إن كنت كلما
بدا مطمع صيرته لى سلما

ولا أشك فى أن الأديب غاب عن ذكراته ماسمعه من الأستاذ الكيلانى ، فقدسمعت البيت من الأستاذ غير مرة منسوبا إلى صاحبه ، وقدأورده صحيح النسب فى بعض مؤلفاته ، ويرجع ترديده البيت إلى اعتزازه بـ المعنى .

وحق ما قال كامل كيلانى فى العقاد ، كما أنه مما يجب أن يذكر فى هذا الصدد أن جيل الأدباء الحالى رفع شأن أشخاصه بتوجيه هممهم إلى القراء عن طريق الإنتاج ، وإعراضهم عن التا[illegible]ن بالكبراء ، فالأديب يرتفع قدره أولا عند الجمهور ، ثم يطلب (الباشوات) مودته ، وهؤلاء منهم الأديب ، أو المثقف ، المقدر حقيقة ، ومنهم من يبهره الصدى المردد . على أن الزمن قد تطور ، فقد أصبح بعض الأدباء من الباشوات ومنهم من لا تقل مكانته ولا ينقص قدره فى المجتمع ، بل يزيد ، عن حملة هذه الألقاب .

كشكول الأسبوع

□ لعل كثيرين لا يعرفون أن معالى عبد العزيز فهمى باشا شاعر ممتاز . وقد كان صاحب « الكشكول » ممن يجهلون ذلك ، ولكنه قضى ساعة مع الأستاذ عبد الفتاح الشناوى (راوية عبد العزيز باشا) أسمعه فيها شعراً طرب منه ، ومن ذلك ما طارح به أخيراً معالى المفتى الجزايرلى باشا وزير الأوقاف ، وهى مطارحة طريفة نرجو أن يسمح الباشا بنشرها فى « الرسالة » قريباً .

ومما أنشده الشناوى الراوية قول الباشا وقد توفيت حرمه على أثر إنجاب ولده محمد :

يا وردة عاشت حياة الورد
عمراً سريعاً وهوت للحد
لولا برىء غافل فى المهد
يرضيك أن أحيا ليحيا بعدى
لعجلت بى زفرات الوجد

□ تقرر انعقاد مؤتمر مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، ابتداء من ١٩ ديسمبر القادم ، ومؤتمر المجمع هو الذى يحضره الأعضاء الأجانب من شرقيين وغربيين مع زملائهم المصريين .

□ يعمل المجمع الآن على جمع مواد « المعجم الوسيط » تمهيداً لتقديمه للطبع ، وقد رؤى أن يطبع على الصورة التى تم بها الآن رغبة فى تلبية طلبات إنجازه ، وإرجاء ما يراد استكماله به إلى فرصة أخرى .

□ صدر أخيراً الجزء الأول من كتاب « الوصف فى الشعر العربى » وهذا الجزء خاص بالوصف فى العصر الجاهلى ، والكتاب من تأليف الأستاذ عبد العظيم على قناوى ، وهو من المدرسين الأقلاء الذين يشتغلون بالإنتاج الأدبى العام ، وقد نهج فى كتابه هذا منهجاً جديداً موفقاً فى اختيار النماذج وتحليلها ونقدها ، يتجلى فيه ذوق الأديب المطبوع وقدرة الكاتب المطلع .

□ يعمل الآن الأستاذ محمود الخفيف فى دراسة « جوته » على الطريقة التى اتبعها فى دراسته القيمة عن « تولستوى » ويوشك أن يفرغ من هذا العمل الأدبى الذى حببه إليه الأستاذ الزيات مترجم « آلام فرتر » وهو لهذا سيهدى إليه الكتاب .

□ كتب الأستاذ محمد حسن الأعظمى عميد الكلية العربية بالباكستان ونزيل القاهرة الآن ، إلى معالى وزير المعارف ، يقول إنه اطلع على ما انتوته الوزارة من تشكيل لجنة لترجمة المؤلفات من لغات غربية وشرقية إلى العربية ، ولم يجد بينها اللغة الأردية مع غناها بالمؤلفات العلمية والأدبية القيمة ، مما يجعلها جديرة باعتبارها ضمن اللغات التى يهتم بها كمصدر من مصادر الترجمة المفيدة .

□ يشتغل الأستاذ محمود بك حبيب بدراسة بعض الكلمات العامية للبحث عن أصولها ، ومما حققه قولهم : بحثت عنه فى (سلقط وملقط) فالكلمة الأولى أصلها « سقلط » وهى مدينة رومية كانت مشهورة بالثياب ، والكلمة الثانية إتباع لها . والمحقق أنه لم يبحث عن ذلك فى (سلقط وملقط) لأنه وجد ما يريد .

وحبيب بك مولع بجمع طرائف البطاقات ، ومن هذه الطرائف ما كتب على بطاقة : « عمر كليشم عمدة كفر د[illegible]د سابقا والآن العمدة نجله » .

فلم الأسبوع :

حسونة الطرابيشي يحب بلبه أخت عزوز الحذاء ، وقد خطبها من أخيها ، ولكن هذا لا يريد أن يزوج أخته إلا بعد أن يتزوج هو ، ويلتقي عزوز بعزيزة فيحبها ويخطبها من أمها فترحب به ؛ ولكن نعيم الحلاق الطامع في الزواج من عزيزة يقول لعزوز إن خطيبته تعمل راقصة باسم « قطر الندى » فيذهب عزوز إلى المرقص هو وأصحابه وأخته ، فيشاهدون الراقصة قطر الندى فيعتقدون أنها عزيزة ، والحقيقة أنها غيرها ، ولكنهما تتشابهان . وتعرف الراقصة من كلامهم أن لها شبيهة ، وتعرف عنوانها ، فتحاول أن تستغل هذا التشابه في تدبير أمر . تذهب إلى منزل عزيزة وتعرض عليها أن تحل محلها ليلة واحدة لتذهب إلى والدها المريض ، مقابل مائة وتحسين جنيها ، فتقبل عزيزة وتذهب إلى المرقص وترقص . أما قطر الندى فإنها تذهب إلى جوهري علمت أن لديه جوهرة ثمينة ينوى صديقها الغني أن يشتريها وتخشى أن يهديها إلى غيرها ، وتحتال الراقصة على الجوهري حتى يريها الجوهرة ، فتضربه على رأسه ليفقد الوعي وتأخذ الجوهرة وتتركه صريعا ، ثم يفيق بعد ذلك ويبلغ (البوليس) وتحدث عدة حوادث تتردد الشبهة في أثنائها بين قطر الندى وعزيزة ، وتستطيع عزيزة أن تبرهن لوكيل النيابة على أنها بريئة وأن الجانية السارقة هي قطر الندى ، فيقبض على قطر الندى ويطلق سراح عزيزة ومن اتجهت الشبهة إلى اشتراكهم معها ، وهم عزوز وحسونة وبلبة والمعلم كودك المصور الذي كان يصورهم وكانت صوره تلعب دورا هاما في وقوع هذه الأحداث ويتزوج كل صاحبته ، حتى المعلم كودك ، إذ يتزوج أم عزيزة .

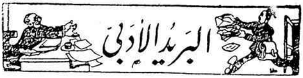
هذه هي قصة فلم « منديل الحلو » الذي عرض أخيراً بسينما « نحاس فلم » وقد ألف القصة وأخرج الفلم عباس كامل . رأينا الفلم يسير في جو طبيعي مشوق حتى بدأت دسيسة الحلاق لصرف الخاطب عن مخطوبته ، فقد ابتدأت سلسلة من الحوادث المبهمة ذات جو بارد رغم ما تخللها من رقص وغناء ، ويرجع ذلك إلى التكلف والافتعال في محاولة حبك القصة ، فمثلا أية ضرورة تحمل الراقصة على أن تحل محلها واحدة تشبهها ؟ وماذا في أن تتخلف عن العمل ليلة لعذر ؟ وما أدراها أن عزيزة تجيد الرقص مثلها ؟ والعجيب أنها اكتفت بقول عزيزة لها إنها تعرف الرقص دون أن تحقق من هذا ... وهكذا لو تتبعنا وقائع الفلم وجدناها تسير وفق رغبة المؤلف والمخرج في أن يهيئ مواقف معينة ولو أخرج طبائع الأشياء عن حقيقتها وأجرى الأمور في غير مجاريها . وهناك الزحمة التي تربك المشاهد والجلبة التي تصدع الرؤوس وتضيع في غبارها عناصر الفكاهة والغناء والرقص . ولست في حاجة إلى أن أشير إلى ما امتلأ به الفلم من الرقص ، ولا سيما أن بطلته تحية كاريوكا (عزيزة) وقد تعجلها المخرج فلم يصبر عليها حتى تصل الحوادث إلى المرقص ، بل جعلها ترقص لخاطبها عزوز بدكانه بين الأحذية في أول مرة يلتقيان فيها ... وهو (عبد العزيز محمود) يغني لها ولمنديلها « الحلو » حتى استحال الدكان إلى (كباريه) !

ومن العبث أن تسأل عن القصة : ماهي ؟ ولم هي ؟ فالمقصود هو « الفرقة » أو « الجوقة » أو « التخت » الذي يتكون من تحية وماري منيب وإسماعيل يس وحسن فايق وحسن كامل وسعاد مكاوي وغيرهم ، فالغرض الأساسي إظهار هؤلاء في الأوضاع التي عرفوا بها ، لترقص الراقصة ويغني المغني ويضحك المضحك . وهكذا نرى أن فكرة « التخت » القديمة لا تزال كما هي في جوهرها وإن اختلفت بحكم الزمن والاختراع ، فكما كان التخت يدعى إلى الأفراح والليالي الملاح ، يدعى الآن إلى (الاستديو) للتصوير والإنتاج ، أما أغراض فن القصة من عرض وتحليل وغيرهما فلا بأس أن تتحقق في عرض الأجسام تحليل قدرة الممثلين على إرضاء طبقة الفارغين من الناس ...

والتسلية في الفلم من النوع المبتذل الرخيص ، ومن المؤسف أن الممثلين والممثلات — وهم مجموعة من أشهر النجوم والكواكب — لم يستغلوا استغلالا مفيدا ، لتفاهة التأليف وركاكة الحوار وضعف الإخراج ، ووجه الأسف أن تكون لدينا كفايات تمثيلية يمكن أن توضع في القوالب الفنية الراقية ، ولكنها تحول إلى الابتذال والتهريج ، حتى لايجد صاحب الذوق السليم ، ولا أقول المثقف — في هذا الإنتاج مايمتعه ويبهج نفسه .

والفلم مقتر عليه في الإنفاق ، وقد ظهر التكلف في انتقال أبطاله إلى الإسكندرية دون حاجة إلى هذا الانتقال ، ليظهر منظر البحر والشاطئ والقطار ، وهي مناظر متكورة معدة من قبل ، وقد قصد بذلك تغطية فقر الفلم في المناظر الجميلة ، ومنظر الشارع الذي تقع فيه أهم حوادث الفلم لا ينطبق على واقع وليس له أية سمة أو معالم واضحة .

عباس خضر



تعبير جزل وليس فيه مجانبة :

« يا ابنة الله » ويا عين الله » تعبيران وردا فى مناجاة الأستاذ الراعى للشمس فى العدد ٨٤٠ من الرسالة ... وإذا كان لى أن أعقب بكلمة لذينك التعبيرين الرائعين فإنما الدافع لذلك كلمتان للأستاذين الفاضلين دسوقى حنفى وثروت أباظة . . فى الأولى سؤال للتبيين . فصاحبها يطلب ما غمض عليه وأعجم من التعبير خدمة للحقيقة والأدب كما يقول . وفى الثانية استنكار لهذا التبيين « بعد أن أوضحه الأستاذ الراعى فى العدد ٨٤٧ من الرسالة » فصاحبها وهو الأستاذ ثروت يقول : قلم شط فى التعبير وكان الله غفوراً رحيما ... ويسترسل فى استنكاره مستغفراً ربه لهذه اللفة طالباً منه الهداية والتوبة والرحمة ... ويبدو لى من ثنايا كلمته أنه أراد أن يتوكأ على هيكل التفسير للأستاذ الراعى ليتسنى له هدم الأصل المثل فى التعبيرين السالفين . ومهما يكن الأمر غير ذلك فقد يكون الأستاذ ثروت محقاً فيما يذهب إليه ويستنكره إلى حد ما إذا نظرنا إلى الأمر من زاوية واحدة ونعنى بها المنطقية فى متناولها السهل القريب التى تعتمد فيها على المألوف وحده . . ولو حومنا طويلا وبذلنا المجهود فى التعليل وأعملنا الفكر والخيال إن أردنا التحليق فى أفق المعنى البعيد فيستبان مالم يكن ليدركه العقل إذا اقتصر على أفقه المحدود للحكم الأول على الأشياء لما همّ بنا العجب إذا تأدّت لنا « يا ابنة الله » — وهى موضع الخلاف مع زميلتها الأخرى — أو بمعنى يانفحة من الله ويا شعاعا من عظمته وآية من قدرته وعملا من معجزاته واستخراج ذهن إلهى جبار ... ألسنا نعبر عن إنتاج الأديب والفنان بقولنا «هذا من بنات أفكاره ؟ » فلا نعنى سوى المبتكر المستخرج من مصنع الفكر ومستودع الذهن ومنبع الإلهام . . فما أقمن الشمس أن تكون من بنات الله المصنوعة المخلوقة من قدرته وإرادته . جل شأنه فى الخلق والإبداع والتكوين . . فى هذا المجال المرح الفسيح يسهل التعليل ويلين التبيين وينطلق المستغلق ... وإذا قلنا إن الله واحد لم يلد ولم يولد كما عبر الأستاذ ثروت فالمعنى بعيد عما نحن بسبيله . ويكفى أن تفهم ما يعنيه الكاتب ويهدف إليه وإذ ذاك يبطل العجب . أما أن الشمس عين الله فى المعنى الآخر فلست أقول فى مجال التعليل واستنهاض المجاز إلا أنها عين الحقيقة . والحقيقة هى الله . وكذا يقولون ولك ما تشاء بعد ذلك من تمحيص وتحليل واستقصاء المعنى السامق الجليل .

(السويس) محمد عبد الرحمن

حضرة صاحب التعليقات :

قرأت فى العدد ٨٤٤ من مجلة الرسالة بحثاً للأستاذ عبد المنعم عبد العزيز المليجى بعنوان الفلسفة الصامتة ، وقد أثار انتباهى قوله : بعد أن أنهى كلامه عن بوذا وفلسفته التى استوحاها من تلك القصة التى عبرت : إن الحياة أعظم الشرور وأن الخير يقتضى بالتحرر منها ، كما أنه قال إن هذه القصة ترمز إلى فلسفة الهند الزاهرة فى الحياة المتعلقة بالروحانية : هى عين الفلسفة التى يعبر عنها سليمان الحكيم فى الكتاب المقدس . وهنا أتساءل كيف قال الأستاذ المليجى إن فلسفة بوذا هى التى عبر عنها سليمان الحكيم . وكيف يكون هذا مادام بوذا يدعو إلى التخلص من هذه الحياة التى قال عنها إنها أعظم الشرور ، وهل يدعو إنسان عاقل إلى التخلص من شر إذا علم أنه سيعود إليه فيما بعد ؟

ومن خلال دعوته تظهر اللهفة على التخلص من هذه الحياة كما أنها تظهر من خلال كلماته أن الحياة أعظم الشرور . ومن هذه اللهفة يفهم المرء أن لا عودة إلى هذه الحياة إن خلص منها ، وبما أنه لا عودة إليها تنتهى فلسفته إلى الجمود .

وأن سليمان الحكيم يقول فى الكتاب المقدس : إن ما كان سوف يكون وما حدث سوف يحدث ، وليس تحت الشمس من جديد . هل هناك شىء نستطيع أن نقول عنه ، أنظر هذا جديد ؟ كلا !

إذن . سليمان يقول إن الحياة تعيد دورها والتاريخ يعيد سيرته من ماض إلى حاضر ، ومن حاضر إلى ماض . فكل ما يراه الناس جديد يستمد حياته من الفناء كطبيعة الكون فى الفصول الأربعة تنتقل من فصل إلى فصل .

مادام بوذا يقف بفلسفته عندالروحانية وهي الرتبة العليا لأبناء الدنيا ، وسليمان لا يقف عند حد ، بل الحياة مستمرة فى دورانها تعيد الماضي إلى الحاضر وبالعكس ، فلا يمكن أن يقال إن فلسفة بوذا هي نفس الفلسفة التي عبر عنها ســـليمان الحكيم فى الكتاب المقدس .

وإن كلة (عين الفلسفة) هي التي جعلتني أكتب إلى صاحب التعقيبات مستفهما عن هذه النقطة آملا أن يغنيني عن السؤال عنها ثانياً ، وله الشكر سلفاً .

اللاذقية — سوريا **محمد بدر**

الى وزارة المعارف

فى كتاب « المطالعة العربية » ص ٤ المقرر هذا العام على طلبة السنة الرابعة الابتدائية ترجمة للامام الشافعي ، وقد جاء فيها مانصه : « وفى سنة خمس وتسعين ومائة من الهجرة سافر إلى بغداد أيام الرشيد فرحب به علماؤها » (ص ٣٥ مطبعة بولاق سنة ١٩٤٩)

ولقد أجمعت كتب التاريخ على أن الرشيد توفى سنة ثلاث وتسعين ومائة من الهجرة ، فكيف تكون سنة ١٩٥ هـ فى أيام الرشيد ؟ .

هذا وقد ألف الكتاب لوزارة المعارف ليدرس فى مدارسها رسمياً — الأساتذة ابراهيم مصطفى بك ، ومحمد عطية الابراشي ، وعبد المجيد الشافعي ، والدكتور عبد الوهاب عزام بك ، وحامد عبد القادر ، وراجعه الأساتذة الدكتور طه حسين بك ، والدكتور أحمد أمين بك ، ومحمد أحمد جاد المولى بك .

فهلا غيرت وزارة المعارف هذه العبارة مصححة إياها بما يتفق وحقائق التاريخ المجمع عليها ؟ أو تبين لنا المصدر التاريخي الذى اعتمد عليـــه أساتذتها المؤلفون والمراجعون فيما تضمنته العبارة المنقولة ؟

محمد خليفة التونسي

الى الأستاذ أحمد شفيق حلمي :

قرأت ما كتبته فى (الرسالة) العدد ٨٥٤ تحت عنوان (الوفاء المذبوح) فأكبرت قوة الأسلوب ومتانة العبارة ورقة المعنى ودقة المبنى ولطافة الجوهر وحسن الحبكة ؛ وما إن بلغت قولك فى الفصل الرابع عندما سقطت سهام على الملاءات البيضاء :

« هل تذبل الورود وهى تختال بين المروج » لم أستسغ هذا التعبير — لأن الموقف حينئذ يرين عليه الحزن والكدر ، ويخيم عليه الانزعاج والكآبة والدهش من هول ما حدث ؛ فى هذا الموقف ، موقف المرء وهو يرى ميتاً يحتضر أمامه — بل بين ذراعيه — فى هذا الموقف يفزع الإنسان إلى ربه أن يسلط عليه نوراً يبدد حيرته ، ويسكب فى قلبه ضياء يوقظه من غمرته ! لا ليقول عبارة هى إلى الغزل أقرب من تعزية النفس وحيرتها ؟!

وكيف يكون « وحيد » مجنوناً يحب عروسه وشريكته ، ثم يفقدها فى غمضة عين بين ذراعيه ليلة العرس ؛ إنه يصرخ كالأطفال ، ويولول كالنائحات — إلا ليظهر مكنون قلبه — وفقكم الله .

الزقازيق **سعيد عبد الراضي حجازي**



ليلة في الصرب

قصة للكاتب الأسباني بلاسكو أبانيز

ترجمة الأستاذ محمد فتحي عبد الوهاب

الساعة الحادية عشرة ليلا ، تلك الساعة التي يغلق فيها مسرح باريس أبوابه . وقد أخليت المقاهي والمطاعم من روادها قبل ذلك بنصف ساعة .

وعلى أفريز الشارع ، وقفنا زمرة حائرين . كانت جموع الناس تخرج من أماكن اللهو فتختفي في ظلمات الشارع ، والمصابيح ترسل ضوءا خافتا سرعان ما ابتلعه الظلام ، والسماء الحالكة تجذب إليها الأنظار بتلألؤ أضوائها ، فيتطلع إليها الناس في نظرات من القلق . فقد كان ذلك الامتداد الفجائي للنور الكاشف أحيانا ما يكشف عن منطاد ، تغمره الأشعة فيبدو كالسيجار المتوهج .

وشعرنا بالرغبة في الاسترسال في سهرتنا . ترى أين نذهب وقد أغلقت باريس المكتئبة كل أبوابها ؟ ... وحدثنا أحد الصربيين عن مطعم لفندق معين ، مفتوح الأبواب طول الليل ، يستقبل رواده من الضباط ، فيدلفون إليه خلسة وكأنهم من أصحابه . وكان يتردد عليه سرا إخوان في السلاح من مختلف الأمم ، قد قدموا إلى باريس لقضاء بضعة أيام فيها . وقصدناه ، ودلفنا إلى قاعة استقباله في احتراس ، فشعرنا بالفارق الهائل بين أنواره الباهرة وظلام الليل المدلهم . كانت القاعة أشبه ما تكون بمدخل منار كبير ، وقد انعكست من مراياها عناقيد الثريات الكهربائية ، فخيل إلينا أننا ارتددنا بأعمارنا عدة سنوات . النساء بزيناتهن ، والشمبانيا ، وتنهدات القيثارة ، وزنجي يرقص وقد ارتعشت أجزاء جسمه في حرارة — كان كل ذلك من مشاهد عهد ما قبل الحرب . بيد أنه لم يكن هناك من الرجال من يرتدي لباس السهرة .

وكان الجميع من فرنسيين وبلجيكيين وانجليز وروسيين وصربيين — مرتدين حللهم الرسمية الرثة ، وقد علاها الغبار . وكان بعض الجنود الإنجليز يعزفون على القيثارة ، فيصفق لهم القوم في ابتسامات باردة كالرخام ، وقد جلسوا مكان فرقة الفجر الموسيقية . وأومأت السيدات إلى جندي منهم يهمس باسم والده اللورد — صاحب الملايين الشهير ، وهو ينشد قائلا « دعونا نبتهج أيها الأخوان ، فغدا نموت » .

كان كل هؤلاء الرجال الذين قربوا حياتهم لمذبح آلهة الحرب ، يشربون العرق في جرعات كبيرة ، ويضحكون ، وينشدون ، ويلقون بتحياتهم في حماس إلى أولئك الملاحين المغامرين الذين كانوا يقضون الليل على الشاطئ ، ثم يعودون في صباح اليوم التالي لمجابهة العاصفة في شجاعة .

ولاح على الضابطين الصربيين المرافقين لنا ، دلائل الرضا . فقد زج بهما وطنهما إلى باريس ، مدينة الأحلام ، تلك التي طالما ملأت أفكارهما أثناء إقامتهما المملة بمعسكر في بلدة ريفية . وكان كل منهما يعرف كيف يسرد قصته . موهبة عادية في بلد يكاد يكون كل من فيه شاعرا . فعندما مر لامرتين بالمقاطعة التركية بالصرب وقتئذ منذ حوالي قرن ، عجب لما للشعر من أهمية في تلك المقاطعة : مقاطعة الرعاة والمحاربين . وكانت الأفكار والذكريات تنظم شعرا في أرض قل أن تجد فيها من يقرأ ويكتب . لقد مد المؤرخون الوطنيون من أجل الألياذة الصربية ، بما نظم من أناشيد جديدة .

وتذكر الضابطان وهما يحتسيان الشمبانيا ، بؤس أيام تراجعهما منذ أشهر مضت : الكفاح ضد الجوع والبرد ، والمعارك التي دارت على الجليد ، واحد ضد عشرة ، وفرار الناس والحيوان في ارتباك مفزع ، والمدافع الرشاشة والبنادق تنطلق دون انقطاع على مؤخرة الطابور ، والقرى المحترقة ، والجرحى ، والمشردون يئنون وسط اللهيب ، والنساء المشوهات وقد حامت حولهن الغربان ، وفرار الملك بطرس العجوز ، الكسيح من مرض الروماتزم ، دون أن يكون له معين سوى عصاه الخشبية ، وقد أخذ هو ومن معه من حاشيته يتسلقون الجبال ، محني القامة ، صامتا ، يتحدى القدر وكأنه أحد ملوك شاكسبير .

وراقبت الضابطين الصربيين وهما يتحدثان . كان كلاهما فى غضارة الصبا ، قويا ، ممشوق القامة ، ذا أنف أقنى كأنه منقار النسر ، وشارب مدبب الطرف ، وقد انفلتت خصلات الشعر من تحت قبعتيهما الصغيرتين . وارتدى كلاهما حلة فى لون الخردل ، ولاح عليهما الهدوء الذى يضفى على الشجعان الدائبين على نفض الموت من فوق أكتافهم .

واسترسلا فى الحديث : تكلما عما حدث منذ شهور قلائل ، وكأنهما يتحدثان عن مغامرات ماركو كرايلوفتش « السيد » الصربى الذى تسلح بأفعى كأنها الحربة ، ليحارب بها شاربى الدماء بالغابات ، ومال بهما الحديث إلى ذكريات طفولتهما القاسية

ثم قام صديقنا الفرنسى ، واستأذن ورحـل ، وكان أحد الضابطين يقطع استماعه إلى الحديث بالتطلع إلى مائدة جانبيــة . كانت ترنو إليه عينان حالـكتان ، تعلوهما قبعة من الريش الحريرى الأبيض ، ولاشك أنهما استرعتا ناظريه ، فقد هب واقفاً كأنما انجذب بدافع لا يقاوم ، وسار صوب تلك المائدة ، وإن هى إلا لحظات حتى اختفى ، واختفت معه القبعة الحريرية .

وتركت وحيداً مع الضابط الآخر ، وكان أصغر من رفيقه سناً وأقل منه حديثاً . وارتشف رشفة من قدحه وهو يتطلع إلى الساعة الموضوعة على القصف . ثم ارتشف رشفة أخرى ؛ وأخـيراً نظر إلى تلك النظرة التى تسبق دائماً الإفضاء بسر خطير . وأدرك حاجتــه إلى الإدلاء إلى بحادث مؤلم يعذب ذاكرته ونظر إلى الساعة مرة أخرى : كانت الواحدة صباحا .

وعلى حين غرة ، أخذ يصيغ حديثه الصامت فى كلمات ، قال

— حدث ذلك فى هذا الوقت ، منذ أربعة أشهر ...

وأخذ يتابع حديثه ، وأنا أتخيل معه الليل الحالك ، والجليد الذى يغمر الوادى ، والجبـال الناصعة البياض المغطاة بأشجار الزان والصنوبر ، وقد هزت الريح أفنانها فتساقطت منها ذرات البرد الأبيض . ورأيت أطلال قرية ، ترابط فيها فرقة صربيــة ، آخذة فى التراجع صوب البحر الأدرياتيكى .

كان صديقى يقود مؤخرة هـذا الحرس ، كتلة من الرجال ، محلة أصبحت الآن قطيعاً من الرعاع . يرافقهم أهل القرى فى ذهول من الألم والخوف ، فيتحركون بلا إرادة كالآلات ، وينساقون إلى الأمام كالحيوانات ، وكانت النساء ، الداكنات ، المشوقات ، القويات ، يسرن فى صمت فاجع ، وينحنين على الأموات أثناء مرورهن فينزعن منهم بنادقهم وذخيرتهم .

وبدا الظلام متوهجاً بضوء أحمر متلألئ من القنابل المتطايرة بين الأطلال . فاستجاب إليها أعماق الليل وأقبلت منه التوهجات القاتلة ، وأز فى الظلام الدامس الرصاص : حيوانات الليل الخفية

كان كلما أتى الصباح ، يبدأ الهجوم ، وكانوا يجهلون عدد من هناك ، أولئك الذين يصطفون ضـدهم فى الظلام . أهم ألمان ؟ نمسويون ؟ بلغاريون ؟ أم أتراك ؟ . لقد فرض عليهم أن يجابهوا الـكثيرين منهم .

واسترسل الصربى فى الحديث قال : « كان لا مناص لنا من التراجع ، مخلفين وراءنا أولئك الذين يموتون تقهقرنا . وكان لزاما علينا أن نصل إلى الجبال قبل أن يتنفس الصبح »

وكان الطابور الطويل من النساء والأطفال والكهول وما اختلط بهم من قطيع الحيوانات قد ابتلعهم الليل ؛ ولم يبق فى القرية سوى الرجال القادرين ، يحاربون من مخابئهم بين الأطلال وقد أخذ جزء منهم فعلا فى التقهقر .

وبغتة ، انتابت الضابط ذكرى قاسية .

الجرحى ما الذى نفعله بهم ؟ كان أكثر من خمسين رجلا ممددين على القش فى حظيرة مزقت القنابل سقفها . رجال يعانون آلاما مبرحـة ، رجال مذهولون ، يتململون فى نومهم ويئنون ، جنود أصيبوا بجراحهم منـذ أيام مضت ، واستطاعوا أن يجروا أنفسهم جراً إلينا ، وجنود أصيبوا فى ذات الليلة يتبعهم سيل من الدم الجديد ، وقد ضمدت جراحهم بضمادات مستعملة ، ونساء أصبن بشظايا القنابل » ..

ودلف القائد إلى ذلك الملجأ الذى تفوح منه خبيث الروائح من الأجسام المتداعية ، والدم الجاف ، والملابس القذرة ، والأنفاس المتصاعدة ، وعندما تفوه بأول كلماته ، تحرك أولئك الذين لا تزال لديهم بقية من القوة ، فى تململ ومشقة تحت ضوء المصباح الوحيد المتعالى دخانه ، وسمعت الأنات ، صمتة الدهشة والرعب ، كما لو أن هؤلاء الرجال المحتضرين يخشون شيئاً أكثر رهبة من الموت .

مطبعة الرسالة